الحكمـــة من البنـــوة

حـــوار بين آبـاء وأبنـاء

د. محمد شعلان

الطبعة الثانية ١٩٩٥

الناشر والمؤلف

د . محمد شعلان

٤٤ شارع القصر العينى ت : ٣٥٥١١٧٣
مكتب الأعناب: فاكس : ٣٦١٤١٦٦

الإهداء

إلى أمي

التي أنجبت أطفالا

صاروا كهولا

فأنجبوا المزيد

والكل يدين لها

إلى زوجتي عنايات

التي شذبت طاقتي

لأكتب وأدرس وأعلم

إلى وليد الذي عاد

ورانية التي تبحث بألم عن طريق العودة

وشيماء، التي تخطو وتسمو بتؤدة

مقدمـــة

المعتاد أن يتعلم الأبناء من الآباء . فالتراث ماهو إلا انتقال القيم من جيل إلى جيل . والشعلة يسلمها الكبار للصغار . والأطفال هم ورثة الحياة الدنيا .

إلا أن الحروب كمثال سيء يموت فيها الشباب ليبقى الآباء . ويتعلم الآباء الزهد فى الحياة من أبنائهم الشهداء . ويتسلمون منهم شعلة الحياة لينقلوها إلى أحفادهم . والسلام من باب أولى يحمل إمكانية أن يعلم الآباء أبناءهم الحكمة . والآباء هم الذين ينجبون ويجب أن يتوحدوا مع أطفالهم ويعايشوهم مشاعرهم ويتعلمون معهم الأقبال على الحياة والبهجة والبحث والتساؤل والحيرة .

الخالق يضع سره في أضعف خلقه . ويؤتي الحكمة لمن يشاء. لمن هو كهل أو كان فى المهد صبياً .

إننا حينما نتجاهل أولادنا ونتعامل معهم على أنهم وعاء سلبى نلقى فيه مانشاء من تعليمات وعلم وحكمة نفقد النصف الآخر. وذلك أننا بمجرد قيامنا بذلك الواجب نتلقى ونتعلم منهم العلم والحكمة. فأولادنا فى حاجة إلى آذاننا، مثلما نتوقع منهم أن يسمعوا منا. فالحوار المتبادل بين الآباء والأبناء انما هو اثراء متبادل وتذكير لنا بأنه مازال لدينا الكثير مما يجب

تعلمه ، وأننا نتعلم فنحيا . والحياة حركة وتطور . والذى يتوقف عقله إنما يموت حتى وإن دق قلبه.

إننا نحيا بأولادنا مثلما نحيا لأولادنا .

١- الرغبة والعذاب

يا أبتى إنك تتعذب لأنك ترغب . وطلما أنت ترغب فإنك محروم مما ترغبه. وأنت ترغبه لكى تريح نفسك من عذاب الرغبة المحبطة. لكى تتخلص من العذاب لابد أن تتخلص من الرغبة. ولكى تتخلص من الرغبة لابد من أن تتخلص من الجسد. أى أن تعود روحا فى رحاب مصدرها الأصلى الخالد . إلا أن هذا المصدر ذاته هو الذى نفخ من روحه فى جسدك فأحياه . لقد وهبك خالقك الحياة فكيف لك أن تعصيه وتعود روحا بلا جسد دون أمر منه. طالما أنت موجود فى هذا الجسد وفى هذه الدنيا فعليك أن تحياها . وعليك أن ترغب، وبالتالى تتعذب. أمر الله لك أن تطيع أى لا ترغب. ولكن هبته لك، جسدك ودنياك ، تعنى أمره لك أيضا أن ترغب . وحينما ترغب فأنت تعصى. أنت ترغب فتعصى فتتعذب .

فما دام الأمر هو أنك لا تستطيع أن تكف عن الرغبة فيكتب عليك الكدح والمعاناة فالمسألة تصبح كيف تقلل من حدة المعاناة ومن حدة الرغبة . وتخفض حدة الصراع بين الرغبة وموضوعها، وبين الرغبة وهدفها وهو الإشباع إلى الحد الذى يحول الصراع إلى حوار . كيف تتصارع بما لا يؤدى ذلك إلى غالب ومغلوب . فلا ضرورة لأن يكون مكسب أحد أطراف الصراع ملازما لخسارة للطرف الآخر. هناك علاقات يكسب منها الطرفان.

تستطيع أن تحقق رغباتك فتعصى ولكن إذا ماتحكمت فيها وقننتها

وضبطتها فأنك تكسب ثوابين : ثواب الاعتراف بالرغبة التى خلقها الله فيك، وثواب مخالفتها طاعة للخالق الذى أمرك وحلل لك وحرم عليك .

خذ من دنياك أقصى ما تستطيع وازهد فيه واستغنى عنه بقدر ما تستطيع . أجمع المال وانفقه . أحصل على السلطان وتنازل عنه . اسعى للمجد واعزف عنه تواضعاً

قلت : هكذا يا بنى تحيا دنياك شاباً راغباً فتحيينى وتسعى لآخرتك شيخاً فتحملنى الشعلة لانقلها إلى أبنائى.

٢- من مصر وإليها

يا أبتى لقد اطلقت سراحى من قيودى الخارجية لكى أعود إليها مختارا ملتزما. فقد أنشأتنى طفلاً مصرياً عربياً مسلماً وسط محيط الحضارة الغربية. ثم عدت بى إلى مصر كى أوطد مابذرته فى داخلى مع البيئة الاجتماعية الخارجية التى كانت المنبع الأصلى لما فى داخلى. والآن أبعدتنى بالسفر شابا يبحث عن هويته بحرية وفى معزل عن قيود المنبع الخارجى. أعدتنى إلى الغرب طالبا العلم بما يوصل جذورى بفروعى : أن أكون مصرياً عربياً مسلماً يجيد لغة العصر ويتعامل مع الحضارة الغربية الغالبة ، أرجلى فى الأرض ورأسى فى السماء.

أنا مصرى أعود عبر آلاف السنين إلى مصدر التوحيد . إلى اخناتون. وإلى هاجر المصرية أم العرب من أبيهم ابراهيم . أبو الأنبياء. وإلى موسى الذى نشأ بين المصريين ثم هاجر بقومه بعيداً عنهم. حتى عادت اليهم رسالة المسيح الذى آوته طفلا، من منبعها فى شكل كنيسة قبطية مصرية، ارتبطت احدى بناتها، مارية، بمحمد خاتم المرسلين . أنا مصرى حافظت على التربة التى نبتت فيها وترعرعت كافة الرسائل السماوية. فتعلمت أن احترم جميع العقائد. بل تعلمت أن من الأنبياء من لم يقصصه الله علينا . فما من أمة الا وأنزل الله فيها نذير . تعلمت أن احترم البوذية والداوية والهندوكية وأى عقيدة يقدسها صاحبها.

أنا عربى اتحدث بلغة عريقة تربطنى بامة تمتد من المحيط إلى الخليج لو اجتمع شملها لشمخت وحملت رسالة الحضارة لتربط بين العلم الغربى الدنيوى والحكمة الشرقية الروحية. تعلمت ذلك مسلما موحدا لا يرى انفصاما بين التقدمية والسلفية، ولا بين الأعجمى والعربى ، ولا بين علم أوروبا وعلم الصين ، الدنيا والآخرة .. الدين والدولة.. الروح والجسد..وهلم جرا.

لقد تحررت لالتزم . ومددت فروعى لأغذى جذورى ولأنبت جذوع جديدة . لقد تغيرت لاحافظ على ثباتى واستمراريتى . أخذت الشعلة منك لأحملها لأبنائى من بعدى. ولأنك تحافظ عليها موقدة بينما أعد أنا الوقود لكى أنتقل بها دورة أخرى. أنت تحافظ على البناء بينما أنا أتعلم بتفكيكه كيف أعيد تركيبه مجددا . بل أنك تنتظر لتشاركنى فى عملية إعادة البناء ، تقودنى بحكمتك وتتبعنى بخبرتك.

فأنتظر يا أبنى ، أنى عائد اليك. وأحفظ لى البناء فأنى لمستوطنه. ولا تجزع إذا ما اهتز فأنى معيد بنائه.

٣- جسدين من نفس واحدة

يا أبتي كيف اقبل لاختي مالا أقبله لصاحبتي. أوكيف أقبل لصاحبتي مالا أقبله لأختي. بل كيف أقبل لنفسي ما لا أقبله لأختي. ألم يخلقنا الله من نفس واحدة ففصلنا لنهيم باحثين شوقا إلى سكون الوحدة التى أتينا منها. لكى نعود متحدين لا بد أن ننفصل ونبتعد. فيكون لكل منا هويته مستقلا متكاملا مستغنيا، عبر رحلة طويلة من العلم والعمل . فإذا ما نجحنا حق لنا أن نسلك طريق العوة، إلى سكينة الوحدة، ووحدة الحب.

أنه طريق طويل محفوف بالمخاطر والمصاعب. طريق موحش ومظلم. ولكن السير فيه يدفعه الانجذاب إلى شعلة النور فى نهاية الدرب. أسير فيه وحدى وحيدا أبحث عن ألفه النفس وأقاوم إغراء استبدالها بألفة الجسد.

فإذا كانت المرأة هى نقيضى الجنسى الذى يجذبنى إليه بمثل شحنةالجسم الموجب للسالب، فإنها أيضاً من النفس الواحدة التى نبعت منها. فلا يكفى لكى أعيد التحامى بها أن اقتصر على التحام الجسد. بل لابد من أن أصعد سلالم النفس الى قمتها فى الروح التى هى النفس الواحدة الى جئنا منها. لكى التقى بها هناك لا بد أن أتعلم وأعمل وأنتج لاضمن لجسدينا البقاء، بل ولما يتولد عن هذا الجسد من أجساد أخرى لأبناء لنا.

ولذلك فلابد لها أيضاً أن تنمو بصعود السلم بالعلم والعمل لا أن تنتظرنى وهى جسد جائع لا يشبع من روح ولا يشبعها. لا بد لها أيضاً أن تفكر وتبحث وتجتهد وتتعلم وتعمل .بل أنها بانشغالها هى الأخرى بالهدف المشترك تحررنى من الإنشغال بإشباعها لأنطلق منشغلا بالهدف.

أعيننا إلى الأمام وإلى أعلى، وأجسادنا تلحق بنا لا تقودنا. هكذا يتميز الإنسان على كافة المخلوقات. أنه مثله يرتكز على عالم المادة ولكنه على خلافه يسمو بروحه محلقا فوقه. يعيش يومه ويعى آخرته :ويعمل لدنياه، كأنه سيعيش أبدا ولآخرته كأنه سيموت غدا.

أراك يا أبتى تعمل وتكدح وتجتهد فأعمل مثلك ومعك بل أفوقك. فأنك على الأقل بحكم السن تستحق قليلا من الراحة، ووعيك بقدوم الراحة الأبدية يشعل شوقك إليها، ومع ذلك تعمل ولذلك أعمل. فأعمل واستمر حتى يكون لى معيار أتفوق عليه.

٤- منى الدنيا ومنك الآخرة

يا أبتى حينما سألت الكبار عن الله انزعجوا وقالوا : أنت ملحد، وحد الله يا أخى وكف عما أنت فيه. وسمعت استجابة من حولى وهم يصيحون بالشهادة بشكل آلى وبلا مشاعر. فمكثت أسأل لأنى تعلمت منك أن ليس هناك مايزعج حينما أسأل. وأن الأيمان المبنى على العقل والجدل أفضل من الإيمان المبنى على القول فقط، ومافى القلب لابد أنه مكمل لما يبدو على الوجه. مكثت أسأل لأنى تعلمت متى أسأل ومن أسأل وماذا أسأل. لأنى مكثت أسأل وتعلمت كيف أخاطب البلهاء والمنافقين والمؤلفة قلوبهم بلغتهم، مكثت أسأل.

تعلمت منك كيف تكون الإجابة على التساؤل. فقد شاركتنى مامررت به من حيرة أثناء نموك ومرورك بفترة الشباب ولم تجبنى بإجابات قاطعة ونهائية تميز الأبيض من الأسود. وحتى لو كانت عندك هذه الإجابات القاطعة والواضحة فى سلوكك ومظهرك وانتمائك فإنك لم تلقها على. فأسوأ مايحدث للعقل الباحث المبدع الحافر هو أن تلقى عليه الإجابات القاطعة فتنهى حيرته وتقتل ابداعه وتوقف بحثه. فالسؤال مطلب لإجابة، ولكن التساؤل مطلب لمشاركة وتفهم. وأنا أتسائل لا أسأل، وأنت تشاركنى التساؤل لاتجيب. فأستمر باحثا حتى أصنع إجاباتى أو أتعلم كيف أتحمل حيرتى بينما أنا أكمل مسيرتى.

أنى أعـرف أننى لا ولن أعـرف كنه الله، ومع ذلك فـأنى لا أكف عن البـحث وعن الرغبـة فى المعرفـة، كل مـا أتأكـد منه هـو أننى مـوجـود وأننى وجدت لكى استمر موجودا . أنى حى واتمسك بالحياة، وفى ذات الوقت أعلم أن وجودى بدأ بنفى العدم .

لقـد وعيتـه وادركتـه، وجـعلت فى كل لفظ وكل حـركة تكرار بـعد مـعنى يوصـلنى فى حـد ذاته الى مـا بعـد المعنى، العـبـاد فـى كـافـة أركـان الأرض يكررون اللفظ والحركة، يتلون الآيات ويوجـهـون الدعوات، حـتى الذين تركـوا الأديان واجـهـروا بالحادهم وجدوا أنهم استبدلوا أسـمـاء بأسـمـاء، وأقـامـوا علاقـات مع مقدسـاتهم الجديدة إنما هى ذات العلاقة التى درست فيها كافة الأديان أتباعـهـا على تحقـيقـهـا وبواسطة شعـائر مـشـابهـة : التـلاوة والدعـاء والتأمل الساكن .

هكذا صـارت حيـاتى عـبادة فى كل لحظة، وصـارت معـامـلاتى وأعمـالى هى الأخرى عبادة.

٥- العبادة ما عبر الشعائر

يا أبتى علمتنى شعائر العبادة وأسس المعاملات، ولم أكن أفهم لماذا أفعل ما طلب منى. وقاومت ماتعلمت. وتوقفت برهة لأفهم. حتى تيقنت أننى بالعبادة أولى وأعى نحو ما هو أبقى منى فيختفى خوفى على أبنائى. فما دمت أنا عبد للباقى فأنا باقى مثله ولكن بقدر ما أنا عبد له فأنى مطيع لأمره لى أن أكون أو لا أكون. وأنى فان بأمره ولكن بعد بقاء.

كانت العبادة تكرار لكلمات ولحركات لم أفهم لها مغزى. ثم علمت أن التكرار فى حد ذاته يحدث تغيرا فى وعيى. فى بداية التلاوة اتجه وعى نحو الملافظ والكلمات والمعانى. وبعد أن أجدت كل هذا وصار تكرارا بلا وعى واجهت الفراغ. فراغ اللامعنى واللاوعى، وأحسست بالضياع وبأنى فقدت صلتى بخالقى. وكدت أضيع منه وأخضع للشيطان طالبا الهروب بواسطة الحواس ، باللعب واللهو أو حتى بالعمل فى نطاق الدنيا أى من أجل ذاتى، أو الهروب بواسطة الفقدان التام للحواس سواء بالتخدير بالعقاقير، أو بالتبلد الوجدانى الوظيفى أى الموت المعنوى، أو بطلب الموت ذاته. لم يعد يوجد بالنسبة لى آخر. ولم أعد أعى وجود خالقى. وكان فى وعيى هذا بغيابه عنى تأكيد لوجوده. فهو هنا ولكنى لا أدركه. فزاد بحثى عنه، وعلّنى صبر الانتظار. بكيت وتوسلت ودعوت. كررت وأكتشفت أن فى التكرار والاصرار الوجه الآخر له وهو أن طلبى لما ينقصنى لهو فى ذاته اعتراف

ضمنى بأنه ماينقصنى موجود. إذا فأن كان موجود فعلا فما معنى بحثى عنه، وأن كان قريب منى فما معنى لهثى وراءه ؟

حين لم أكن موجودا فى الأصل. وأعلم أيضا أننى عائد اليه. فمثلما نفيته (العدم) فهو ينفينى. أنى ولدت وسوف أموت. ومابينهما فهو أنى موجود وأتمسك بذلك الوجود. أنى أعى الفناء وأعى البقاء. وأن كنت أغلب الوعى بالبقاء.

لعلك يا أبتى أكثر وعيا بالفناء. وهذا حقك. فقد بقيت بقدر مابقيت. بل يفضل بقاؤك حتى اليوم، مع صعود وعيك بالفناء تأكد عندى حب البقاء. أنت تعد نفسك لتلبية النداء بالفناء فتذكرنى أن أعد نفسى له. فأعمل متناسيا رغبة البقاء. فأجد أننى بعملى أتأكد من البقاء. فأذكرك أن تبقى قدر المستطاع. إذا أردت الفناء لابد لك من البقاء أولاً. تذكرنى بالآخرة وأذكرك بالدنيا.

٦- لا ثورة عليك فالخضوع لله وحده

يا أبتى أنظر حولى واجد كل شاب يمر بمرحلة تمرد ضد أبويه وضد المجتمع الذى يمثلانه. وأنظر إلى نفسى خائفا : هل هذه طبيعة الأمور ؟ وإذا كان كذلك فمتى يأتى دورى ؟ هل أنا أخفى تمرد أو أؤجله ؟

ثم استرجعت علاقتى بك لألقى الضوء على ما بداخلى. وجدتك لم تقتصر على دور الأب الممثل للسلطة فى المجتمع. ولكن كنت أيضا ثائر على دورك. كان فيك الشاب الثائر ومازال. وكان فيك الأب القامع. وتعايش الإثنان فيك فى علاقة جدل مستمر يثرى طرفيه لا يتأرجح بينهما بحيث يغلب جانب مرة والجانب الآخر المرة التالية. لم تكن أبدا أب فقط ولا شاب فقط. ولكنك كنت دائماً أب وابن.

فنموت معك أب وأبن . أنا أيضا تعلمت منذ الصغر أن أكون أب بالإضافة لكونى ابن. أن أكون راشداً بالإضافة لكونى طفل. لم أحرم من الطفولة ولكنى تعلمت من الصغر البلوغ. تعلمت من صغائر الأمور حينما كنت تعلمنى القيادة. ثم منعتنى من ممارستها بغير أشراف حتى أبلغ السن القانونى تعلمت كيف أخرج من دور الطفل فأقود السيارة، ثم كيف أعود اليه فامتنع عن مخالفة القانون.

كنت تحذرنى من القانون. فاعمل له حساب. وفى المقابل تركتنى

أتوكل على الله بعد عقل الناقة. فتركتنى أغامر بالترحال بالحد الأدنى من الحماية والإمكانيات المادية. فاستطيع أن أوكل أمرى إلى الله وأغامر بالغوص فى المجهول. ذهبت بصحبة صديق إلى صحراء سيناء فى اليوم التالى لتحريرها . وعقدت علاقة ارتباط بارضى المحررة بعد أن توطدت علاقتى بأرضى الأصلية المتحررة. لم تخف على ولم تحذرنى من القانون. فقد اعتمدت على حماية الله لى. وقد حدث حينما كان يبطش بى القانون (تعسف الحراس لوجود شابين يهيمان على وجههما) تدخلت إرادة الخالق لتحمينى. وحينما واجهت مخاطر الطبيعة كان هو يرعانى.

لست فى حاجة للثورة عليك. فأنت عبد لله ولست سلطان الأرض. أنت الشاب الباحث عنه والشيخ المتوجه إليه. ولعل كل منا مشترك فى الثور على سلطان ثالث. سلطان الحضارة الغربية الذى يجثم على أنفسنا ونحن غير مدركين بل متعاونين.

٧- إدخار العلم وإدخار المال

يابنى رغم أن نفقات تعليمك بالخارج تكفى لأن تنفق على العديد من أخوان لك فى مصر الا أنك تعيش فى قحط. ولم أدخر لك حتى اليوم مايغطى حاجيات الغد. لا شقة أو مكتب أو سيارة. بينما ترى زملاؤك تُرسَم لهم خطوات حياتهم خطوة خطوة. أنت تواجه المجهول وتعيش يومك وهم ينعمون براحة المستقبل المضمون. ترى أقد قصرت فى حقك ؟

بل العكس يابنى. فالمال الوفير مصحوب بالخوف من فقدانه. فما يصل بالسهل مهدد بالذهاب بالسهل. والخوف يؤدى بصاحبه إلى الاستمرار فى طلب المزيد مما حصل عليه وخاف أن يفقده. فيفقد عمره وقد حوله إلى رحلة تكاثر بالكاد يلهيه حتى موعده لزيارة المقابر. أما العلم والحكمة والعمل فهى كنوز لا تفنى. لا تفنى مع فناء الجسد فى المقابر بل تبقى تشع من كل ما لمسها. هذه هى الثروة الحقيقية التى لا تغنى ولا تلهى فى البحث عن الاستزادة منها. بل هى معنى الحياة.

أما المال فأنت تنفقه فى السراء والضراء ... تنفقه دون أن تسرف أو تقتر ولكن بينهما قواما، تنفق ما فى الجيب دون قلق عما قد يأتيك من الغيب. ولذا عشنا معا دوما على القحط. حينما بدأنا بعد ترك رفاهية المعيشة فى أمريكا، عشنا القحط فى مصر ولكن سعداء بين أهلنا وأصحابنا. ولما جاء دور التعليم لم تبخل على بأفضل المدارس. وفى الصيف

كنت تحثنى على القراءة الثقافية وعلى ممارسة الرياضة والهوايات من فنون تشكيلية وموسيقى. ولما جاء موعد التعليم الجامعى لم تفرض على جامعة، بل وقبلت أن أفرض عليك تعليمى بالخارج. وأكرمنا الله بما فى الغيب ويسر لنا الدفعة الأولى. حتى إذا رأيت جهدى وقدر استفادتى اقتنعت أنت بالتجربة وكافأتنى بحثى على الاستمرار . وعلى الله الاعتماد.

يابنى أنى أدخرك مواطنا لخدمة اَهلك وأصحابك وقومك فالوطن فى حاجة إلى جيل جديد مستنير يقوم بدور المعبر بين التقدم العلمى الغربى والتراث المحلى المصحوب بالمحاولات المضنية للتقدم واللحاق بعلم الغرب. بجذورك فى مصر وفروعك فى الغرب فأنك تخصب وتضيف.

قال ولذا كانت أولى دراساتى عن التاريخ الإسلامى. ولم يمنعنى هذا من دراسة الماركسية. فالإسلام دين عقل وعلم ويحوى فى ثناياه رحم ينبت العلم والحكمة ويستوعب ماقبله ويترك المجال لما بعده لأن يأتى. أنى أدرس واستعرض المشاكل والحلول التى تواجهنا فى وطننا وأمتنا الإسلامية.نعم إنك تدخرنى لمصر. أنا ابن مصر مثلما أنت ابنها وبالإضافة لكونى أبنك. وأنت تدخرنى لها . وهذه ضريبتك التى وجب لك أن تدفعها لمصر التى أنجبتك. أنا بعيد عن مصر بجسدى وربما بعلمى وعقلى ولكن وجدانى فيها . ويشد خلفه علمى وعقلى ويدى. وهذه فى حاجة إلى إخصاب خارجى حتى تناسب احتياجات مصر. انى عائد إليك وإلى مصر التى أنجبتك وأنجبتنى.

٨- الساعة آتية فلا تتعجلها

يا أبتى علمتنى القيادة طفلاً. فقد كانت لى رغبة أن أشعر بامتداد جسدى المحدود فى جسم قوى وكبير. فالسيارة الكبيرة السريعة القوية هى امتداد لجسدى. أنا الذى أسيطر على حركتها وأسخر قوتها واحتمى فى كبرها. كنت أريد ممارسة قوتى من خلالها. أمشى بها فى الأرض مرحا وأنا مختال فخور. مصعرا خدى للناس، بما لا يرضى الله.

ثم علمتنى كيف أقصد فى مشيي وأغضض من صوتى لأن أنكر الأصوات هو صوت الحمير. بالسير الهادىء فأنى أتواءم مع بيئتى وأتجنب الصراع معها. وأنى بمقاومة كثرة استخدام آلة التنبيه فأغضضت من صوتى حتى أخف من تلوث البيئة بالضوضاء. آلة التنبيه يستخدمها البعض للازعاج والسب ولنهر الآخرين، لا للتنبيه. يريد أن يرى ويسبق من أمامه وهو لا يعلم أن الساعة آتية فلا معنى لاستعجالها. أنه يجرى نحو حتفه ولا يعلم أنه يساهم بجريه واستعجاله فى زيادة نسبة الوفيات والحوادث التى صارت من أهم أسباب الوفاة فى العالم المتقدم. (اسرائيل تفقد من حوادث السيارات أكثر مما تفقده فى حرب لبنان أو فى حرب ٦٧). أنه لا يأتى لنفسه بالتهلكه ولكن يفرض هذه التهلكة على غيره. أنه يقتل خطأ ويلتمس له العذر فى المحاكم ولا يعلم أنه مسئول عن الخطأ وعليه فهو يتعمد المجازفة بالقتل والانتحار.

أستطيع الآن أن أركب الدراجة وأن أمشى وأن أركب المواصلات العامة وأن أقود السيارات. وفى كل الأحوال أتذكر أن هناك آخرين. وأننا جميعا نريد أن نصل إلى ما نسير نحوه فلا داعى أن أستعجل أو أستعجل من أمامى حتى يفسح لى الطريق أو يسبق. المتعة فى الرحلة وليست فقط فى تحقيق هدف الوصول. المتعة فى الوعى بما أنا فيه هنا والآن. أنظر حولى إلى الشمس والسماء والشجر دون أن أغفل الطريق فى الأرض. أتذكر الله دون أن أنسى أننى أعيش فى الدنيا. أعلم أنى ذاهب إليه لا محالة ولكنى أتمسك بما أهدانى أياه من جسد حى، وعالم مادى. أقود بجسدى لأقود جسدى لا أخضع له. استخدمه لخدمة الروح دون أن أخرج الروح منه.

فلا سيارة ولا دراجة تضخم من صور جسدى وإمكانياته وتستطيع أن تطيل عمره مقدار ذرة من الزمن. بل ولا جسدى. ولكن الروح باقية. لا حاجة للطمع إذا فى المزيد : المزيد من السرعة والقوة والحجم. ولاترك لغيرى مساحتهم حتى أتمكن من معايشتهم فى توائم وإنسجام. أتعلم الحب وأمارسه وأنا أتنقل بأى وسيلة. السير عبادة. وسوف أستمر سائراً بأمر ربى حتى يأتينى اليقين.

٩- العقل السليم والجسم السليم

يا أبتي .. لا أخفي عليك أنني في لحظات الأرهاق من العمل والدراسة تراودني أحلام يقظة تعكس ما أنا متعطش اليه. أننا ندرس لنعمل لنعيش. أريد أن أعيش. وأنظر في المجتمع المحيط واجد البعض يعيش والأغلبية تتصارع من أجل البقاء وبالتحديد البقاء الجسدي المادي. ولكن ممن يعيشون أجد البعض قد صاحبه الحظ بما وفر له الثروة بما أغناه عن العمل وربما العلم. يصل عامل الصدفة إلى ذروته في اللوتريات الكثيرة. ونسمع عن زيد من الناس، ربما عجوز أو عاجز أو عاطل، قد كسب لوترية بعشرات بل ومئات من الألوف من الدولارات. وأحلم وأطلب من الله، ثم أفيق وأطلب منه الغفران. كيف أطلب منه الجنة وأنا لم أعمل لها أو أعيش دنياي بعد ؟ ألا أني كادح إليه كدحا فملاقيه ؟ أنه هو الذي كتب على أن أعيش وأن أعمل. وهو الذي وعدني بالمكافأة في الآخرة. وأن لكل حسنة ولكل عمل خير اقوم به، بل لكل عمل (فالعمل في حد ذاته خير يعود على وعلى غيري بالفائدة)، مكافأة آجله. كيف أطلب الراحة في وقت العمل ؟ كيف أطلب الجنة وأنا في الدنيا ؟ كيف أحلم بالنعيم وأنا لم أكدح وأواجه خطر الجحيم؟

لابد أن أعمل . بل ولابد أن أعمل إلى الحد الأقصى من إمكانياتي. فقد أكتشفت أنني حينما أحمل نفس أقصى ماتتحمله اتحفز وأواجه

التحدى بقوة وحماس. بينما حين تكون أعبائى خفيفة أميل الى الكسل وأؤجل عمل اليوم إلى الغد. لذلك أخذت الحد الأقصى المسموح به فى الدراسة بل أنى أحضر بعض الدروس خارج المقرر لكى تثير فى المناقشة وتحفزنى على القراءة التثقيفية. أعد نفس لأكون مهندسا معماريا ولكنى أعد نفسى بنفس المقدار لأكون مواطنا مثقفا واعيا سليم العقل والبنيان. أتعلم الفلسفة والفن التشكيلى والموسيقى والأدب. وأمارس الرياضة البدنية. وأقرأ فى مبادىء التغذية والصحة العامة.

أمرنى الله بكل هذا . فلكى أحب لأخى ما أحبه لنفسى لا بد لأن أحب لنفسى. وما أحبه لنفسه هو ما أحبه لأخى. وهو كل ماسوف يعود علينا جميعا بالخير. أن تكون قاعدة الانطلاق عقل سليم فى جسم سليم.

١٠- من القاهرة إلى المشاعلة عن طريق واشنطن

يا ابنتى اكتشفت الآن حكمتك فى تعليمنا التقشف فى الطعام. أنت قضيت سنوات تعليمك العالى وتدريبك المهنى فى إنجلترا وأمريكا أثناء فترة الغليان الثقافى هناك بين ١٩٦٦ و١٩٧٢، وعاصرت ميلاد رد الفعل الشبابى لطغيان العقلية التكنولوجية وذلك بالاتجاه نحو الطبيعة فى كافة أمور الحياة. ولكنك عدت إلى مصر بنا فى الوقت الذى بدأت فيه العقلية التكنولوجية الغربية تدخل حضارتنا عن طريق الانفتاح الاقتصادى والثقافى على الغرب. ونشأت فى مصر معها طبقة جديدة من أناس كانوا محرومين فلما سنحت لهم الفرصة نهجوا من الغرب ثقافته وأدواته إلى درجة التخمة.

نشأنا فى ذلك الوسط وتأثرنا به. وأخذنا بقيمه. وانفتحت شهيتنا معهم للبضائع الاستهلاكية المستوردة بما فيها الطعام بل ذات القمح الذى يشكل الحد الأدنى للغذاء فى مصر. كل هذا مستورد وغير ناتج عن قدراتنا الإنتاجية. أحببنا «السفن آب» وقتلنا «سباتس» ناهيك عن الكركديه واليانسون والحلبة. وأحببنا الجبن النسلة وتركنا القريش والبيضاء. أحببنا اللبان الأفرنجى وتركنا اللبان البلدى. وأحببنا الهامبورجر ودجاج كنتاكى وتركنا الكباب والحمام.

كنت تحذرنا بل تحرمنا، وكنا نشعر بأننا نشذ عن قاعدة. ولم ندرك ساعتها أن الشذوذ عن القاعدة قد يكون تقدم وليس بالضرورة تخلف.

لقد أرسلتنى يا أبى وأنا ابنة الأربعة عشر عاماً إلى معسكر دولى فى الولايات المتحدة (كلفك أقل من معسكر مشابه أقيم فى تونس لأبناء الجيل العربى). وهناك وجدت نظام التغذية مطابقاً لما كنت توجهنى به. لا للحوم ونعم للنباتات. لا للمياه الغازية. لا للسكر والملح الزائد. لا للدهنيات الحيوانية ذات الكولسترول العالى. لا للأكل المحفوظ والذى تعرض للهرمونات والكيماويات. لا للعيش الأبيض ونعم للعيش ذو "الردة".

وفى المعسكر الدولية شاهدت قيمة ثقافتنا وحضارتنا. كانوا يتعطشون للتعرف على ما لدينا من حكمة فى الوقت الذى نحن نلهث وراءهم مقلدين.

اليوم أعيد اكتشاف جذورى الحضارية، فى الريف المصرى،حيث ما زال الفلاح يعيش على منتجاته وعلى الطبيعة. أم قد فات الأوان بعد أن دخل التليفزيون القرية، وهاجر أبناء القرية إلى المدينة (سواء فى مصر أو الدول العربية) حيث التطلعات نحو الغرب على أشدها؟

إنى عائدة معك يا أبتى إلى جذورنا الحضارية. ولن أتعالى بعد اليوم على أخوانى فى الريف فى قرية المشاعلة.ولن أخضع للضغط الاجتماعى الذى اتعرض له من قبل الطبقة الجديدة.

١١- عروبتى ركيزتها لغتى

يا أبتى.. يادادى .. يا بابا .. يا آبا .. أبوى. كل هذه الكلمات تعبر عن الصراعات الثقافية التى مررنا بها.. لغة الكتابة، اللغة العربية الفصحى .. ثم لغة الألفاظ المستوردة، ثم لغة الفاظ المدينة المقلدة للغرب، ثم لغة الريف المصرى العربى الإسلامى الأصيل.

وجدت بعض الصديقات من أسر يهودية متمسكة بدينها وتراثها الحضارى ينادين آباءهن بـ " آبا " وأمهاتهن بـ " أيما " وسط مجتمع "دادى" الأمريكى.

وليس بخاف أن كل من العبرية والعربية من جذر مشترك. الفرق أن العبرية ماتت ثم أعيدت من القبور. وتمسك بها أصحابها باصرار بل وبعصبية. أما اللغة العربية فهى حية بفضل القرآن الكريم، ولها خيط يربطها على مر العصور وعبر الحدود الجغرافية. ولكنها حية حياة الزهور المحفوظة فى بيوت من زجاج، حية بفضل الضرورة أن اللغة المكتوبة فصحى (أو قريبة من الفصحى) وأن على من يتعلم القراءة والكتابة أن يجيدها. ولكن الواقع اللغوى هو اللغة العامية التى تختلف بين قطر وقطر بل بين محافظة ومحافظة فى نفس القطر بين مدينة صغيرة وقرية مجاورة فى نفس المركز.

ومع انتشار التعليم حدث تقارب قرب العامية قليلا من الفصحى ولكن قرب الفصحى بدرجة أكبر إلى العامية. شوه الفصحى. وشوه قدراتنا على التعبير بالكتابة والتثقيف بالقراءة. وأعجزنا عن التفكير العلمى والفلسفى الذى يتطلب درجة عالية من الوضوح والعمق فى الألفاظ. فصرنا نترك اللغة العربية للتعبير عن الوجدان. الحب والكره والغزل والسب - بينما مارسنا العلم والفلسفة باللغات الأجنبية.

هنا يا أبتى رأيت اليهود يتمسكون بالعبرية. والأمريكان بالإنجليزية (المأمركة). بل الأمريكان من أصول غير انجلو سكسونية يجتهدون لتعليم لغة أجدادهم. وازداد اعتزازى بلغتى وحماسى لأن اتعلمها وأجيدها.

أشكرك على هدية أشرطة المصحف المرتل فى الوقت الذى أرى زملائى يتمسكون بأشرطة الموسيقى الروك وأحيانا بالأغانى العربية الخالية من الأصالة المقلدة للغرب، الفرانكو آراب.. لا سيد درويش...... بل ولاعبد الوهاب وأم كلثوم.

١- لن أكون لصاً ولو شريفاً

يا أبتى قصصت علينا القصص لنتعلم منها الحكمة. فالأطفال يعشقون الخيال. وتذكرنا منها مايلائم احتياجاتنا ونسينا غيرها. وكان احتياجنا فى سن الشباب، أن نشبع مطالب تفوق قدراتنا ونحصل على حقوق أكثر من واجباتنا. كنا نرى الأموال الوفيرة تنفق، والمؤسسات الكبيرة تنمو وتزدهر. وكلما زاد الانفاق وزادت رؤوس الأموال حولنا زاد شعورنا بالاحتياج.

الشباب حولى يثور. الثورة هى فى مواجهة السلطة. أيا كانت.. سلطة الآباء، سلطة الأجداد (التقاليد) سلطة المجتمع الممثلة فى مؤسسات السياسية والاقتصادية. وهى ثورة أحياناً منظمة، ومقننة كما فى الأحزاب السياسية، وأحياناً فردية.

أننا نشعر أن المجتمع ظالم وقاهر. وأن المؤسسات الكبيرة لا يمكن إلا أن تكون هى بدورها ظالمة وقائمة على استغلال جهد الكادحين. إذ لا يعقل أن يكون هناك كل هذا العمل والكدح دون عائد يذكر بينما قلة تستمتع بوفرة تفوق الخيال.

ولذا كانت تأخذ ثورة البعض منا صورة التمرد الفردى على الواقع الظالم. تذكرنا القصص الأسطورية عن اللص الشريف الذى كان يسرق من

الأغنياء ليعطى الفقراء. نحن فقراء وهؤلاء حولنا أغنياء. فلا مانع إذا من أن نقوم بالعمل مباشرة دون وساطة اللص الشريف. لا مانع من أن ننتهز أى فرصة لنتهرب من دفع ثمن بضاعة أو خدمة. لا مانع من ارتكاب مخالفة هنا أو هناك. ولكنى توقفت. لأنى اكتشفت أن ما قد أكسبه من قروش أو جنيهات قد لا يضير صاحبه كثيرا كما أنه لا يفيدنى كثيزاً. فالنقود تنفق بسرعة. والنقود التى تأتى بيسر تنفق أيضا بيسر. ولكنه يفقدنى شىء أهم وهو صورتى عن ذاتى : أننى إنسان شريف. لا يأخذ إلا مايستحق، ولايستحق إلا مقابل ما يعمل. وإذا شبع تمنع عن أخذ المزيد وأستمر يعمل حتى يشبع غيره بل حتى يشبع كل جائع من مخاليق الله.

١٣- القوام المستقيم والاستقامة

أبنتى.. لا أنسى بداية معيشتنا بعد العودة من أمريكا. شقة من غرفتين بلا أثاث يذكر. غرفة منها لنا. وغرفة لك تعمل فيها نهارا بمهنتك وتنام وتقرأ فيها ليلاً.

بعثنا البهجة حيث كان غيرنا يجد الشقاء. فغياب الأثاث جعل غرفتنا أشبه بالملعب أو بالنادى. لم يكن هناك مايعيق حركتنا. ولم يكن هناك مانخاف عليه من الاتلاف أو الكسر. وجذبنا الينا أولاد الجيران ليتحرروا من مساكنهم المكتظة بالأثاث والأدوات الرقيقة القابلة للكسر. لعبنا الكرة. ومارسنا التمثيل والغناء. ضحكنا وثرثرنا وعدونا وجلسنا.

وأكتشفنا أن النوم على الأرض أصح من النوم على الأسرة وخاصة الأسرة "المريحة" الطرية والمقوسة. واكتشفنا أن الجلوس على الأرض يفرض علينا أن نوزع ثقل أجسادنا بالعدل على فقرات العمود الفقرى. فبقيت ظهورنا منتصبة ومستقيمة كما ولدنا بها. فالعمود الفقرى فى مجمله مستقيم رأسيا وبه بعض المنحنيات التى تجعله يشبه من بعيد اللولب الملفوف بما يخفف من وقع الصدمات عليه. ولكن المجمل هو حالة اتزان فى اتجاه رأسى. أن أسوأ مايتعرض له العامود الفقرى هو تلك الأوضاع التى تفرضها علينا تصميمات الأثاث الحديث. الفراعنة كانوا أكثر حكمة منا. فمقاعدهم كانت بلا ظهر أو بمسند مستقيم. وفلاحونا اليوم مازالوا

يعيشـون بحكمـة الفراعنة. يجلسـون القرفصـاء. مـستقيمى الظهر. يركبون الدواب كـذلك ونسـائهن يحـملن "الجـرة" المملوءة بالماء فى اتزان ورشـاقـة واستقامة. أنهم فى حالة صلح مع الجاذبية ومع الأرض.

القامة المنتصبة علامة اليقظة دون توتر والحياة دون تكالب والاعتزاز بالنفس دون تكبر.

يا أبتى لن أصعر خدى للناس ولن أمشى فى الأرض مرحاً. فإن الله لا يحب كل مختال فخور. سوف أقصد فى مشيى، فأنظر أمامى إلى الهدف الذى أنا سـائر نحـوه دون أن أتلفت يمـينا ويسـارا ودون أن آتى بحركـات لا هدف لهـا أو أقلص عضـلات بلا لزوم. سـوف أمشى صـامتـاً لا أقول إلا إذا كـان هناك خيـر يقـال. وسـوف أغـضـض من صـوتى حـينمـا أتكلم فـإن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

١٤- الضوضاء وسكينة العبادة

سمعت مدرسا مرة يصرخ فى تلميذ قائلاً : "كفى صراخ!" وبالطبع ارتبك التلميذ. فأستاذه يطلب منه باللفظ الا يصرخ ولكنه يقدم له قدوة مناقضة بالصراخ. التلميذ يتلقى الأمر ونقيضه فى ذات الوقت. عليه أن يصرخ ولا يصرخ. والمحصلة هى صفر : ألا ينطق.. أو يصرخ باستمراراً.. أو يصرخ أحيانا ويسكت أحياناً.

علمتنى يا أبتى باصرار بالا أرفع صوتى فوق أصوات من هم أكبر منى، وألا أجرى الحوار عبر المسافات (اللهم أن كان بواسطة الوسائل التكنولوجية الحديثة) وألا أنادى الناس من وراء الحجرات (أستطيع أن أطرق الباب أو الجرس وأن أستأذن قبل الدخول). الصوت العالى كصوت الحمير. إنه صوت نكر.

أرى بعض الناس حولى يرفعون من أصواتهم فيزعجون من ليسوا أطرافا فى الحديث ويفرضون عليهم أن يرفعوا هم أيضا من أصواتهم حتى يسمعوا. وأراهم يتحدثون فى بيوتهم بما يوقظ جيرانهم أو يزعجهم.

الصوت العالى عدوان واختراق للحدود الذى يحتمى فيها الإنسان ويجعل منها دنياه التى تخصه. الهدوء المطلوب يقرب الإنسان من نفسه ومن ربه

ولكن الأدهى من ذلك هى تكنولوجيا الضوضاء. هل أسوأها هو صوت النفير الذى حل محل مكان الحنجرة لدى كل من يحتمى فى داخل حدود سيارته. آلة التنبية أو آلة الازعاج هى آلة عدوانية يخترق بواسطتها كل منا حدود الآخر ويعتدى عليه.

ثم تأتى أجهزة المذياع والتلفاز التى يستخدمها أصحابها ليغرقوا أنفسهم فى حمام من الضوضاء الصناعية التى تغطى على ماعداها . مثلما يحك الانسان جلده بأظافره مؤلما اياه ليخفف عنه ألما آخر هو ألم التنميل أو "الأكلان".

ثم يأتى الميكروفون الذى يذيع أغانى وأناشيد الأفراح وتلاوة القرآن فى مناسبات الحزن والفرح. والناس لا تسمع ولا تنصت وتخالف القول الإلهى بأن علينا أن ننصت ونخشع إذا قرىء القرآن.

إننا نعيش فى مستنقع من الضوضاء. يزعجنا بما يرفع من سرعة دقات القلب وقتها بما يرفع الضغط ويقلص الشرايين. إنه يصيب الآذان بالتبلد وفقدان الحساسية.

كيف يمكن أن نقترب من الله ونحن وسط هذه الضوضاء المعتدية المخترقة ؟ هكذا وجدت فى الترحال فى الجبال والصحارى والوديان بعيداً عن المدن خطوة تقربنى من خالقى.

١٥- لكى لا اصبح مجرد فماً ومعدة ومصارين

كنا نأكل الفول والعدس والكشرى ونسعد بهم وننمو ونصح بفضلهم. ثم وجدنا الناس يكرموننا بتقديم اللحوم. كنا كأطفال نعشق الحيوانات الأليفة فكان يصعب علينا أن نتخيل أن تلك المخلوقات البريئة تقدم بعد ذبح وطبخ على أطباق لنلتهمها فى دقائق. كما استغرق ذلك الجسم من جهد. وكم استهلك من حبوب ونباتات. وكم أخذ من رعاية سواء فور ميلاده من أمه أو بعدها من الأنسان الذى تولى تسمينه ورعايته.

ولكننا أكلناها على آية حال. وتعلمنا كيف نشتهيها وصارت هى علامة الارتقاء فى السلم الاجتماعى والاقتصادى فى مجتمعنا.

ولما عدت مرة أخرى الى ظروف اجتماعية مخالفة. ووجدت أن المسألة ليست فقط مسألة تقشف أو توفير. فالحيوانات تحتوى لحومها كما لا بأس به من الكولسترول وكذلك البيض والسمن والقشدة والكولسترول كلما زاد فى الدم (فى وجود عوامل أخرى عديدة) كلما زاد احتمال أن يرسب فى جدران الأوعية والشرايين بما يؤدى مع الوقت إلى انسدادها. وتنتج عن ذلك أمراض خطيرة مثل الذبحة الصدرية والجلطات فى القلب والمخ وغير ذلك.

عدت إلى الاعتماد على النباتات كمصدر رئيسى لغذائى. حتى الزبد

استبدلتها بالماجارين والزيت والسمن بزيت الذرة. وإذا كان لابد من لحم فالأسماك أفضل ويتلوها الدواجن وفى الختام تأتى اللحوم الفاخرة.

الشعب المصرى كان أغلبه نباتيا بالضرورة. والشعب الهندى نباتى بحكم العقيدة. نحن لا نأكل إلا إذا جعنا وذا أكلنا لا نشبع. نجعل ثلث معدتنا للطعام وثلث للماء وثلث للهواء. نصوم شهرا كاملا كل عام. ونصوم أياما أخرى فى كثير من الأحيان.

الشراهة فى الأكل والبدانة والتطلع الى الموائد المجهزة بالأطعمة الثمينة أمور دخيلة علينا. إنها من مظاهر الإنحلال الحضارى الذى يتهددنا. إنها دليل الإنحياز لشهوات الدنيا على حساب الآخرة.

علينا أن نبدأ باستعادة الروح. الجسد المصرى يفقد روحه. بل أنه يفقد عضلاته ولم يعد فيه غير فم كبير ومعدة أكبر ومصارين أكبر وأكبر. وأخيراً حصار من الفضلات والعفونة.

أستعيد روحى. وباستعادتها أشعر أننى أساهم فى إستعادة مصر لروحها.

١٦- المكيفات عند الكبار والصغار

حين بدأت أتعلم عن قيمة الغذاء تساءلت : لم يشرب الناس القهوة والشاى والمياه الغازية ناهيك عن تدخينهم للتبغ ؟ فهذه مواد وأن كانت صادرة من نباتات طبيعية الا أنها لا تمثل ضرورة للحياة. أنهم يسمونها المكيفات. ويشربونها ليزدادوا يقظة وتحفزا وأحيانا ليخففوا التوتر.ولم أفهم لماذا يرغب الإنسان أن يفتعل اليقظة بواسطة المنبهات الكيميائية الخارجية. أليس فى الجسم مايكفى من مواد منبهة ومهدئة يفرزها عند اللزوم وحسب الحاجة ؟

لم يكن فى الأمر صعوبة حينما كنا أطفال. فالمجتمع لا يشجع الأطفال على تعاطى المكيفات. ومع ذلك فأن المنتفعين من الأدمان لم يرحموا الأطفال واخترعوا المياه الغازية المحلاة بالسكر والمحتوية على مواد منبهة مثل الكوكايين الموجود فى أوراق نبات الكوكا. وأصبحنا مثل الكبار نمارس الأدمان لهذه المشروبات التى لا تتعدى قيمتها الغذائية كمية السكر القليلة المذابة فيها. وكذلك اخترعوا لنا الوان الحلويات ذات القيمة الغذائية المحدودة وذات الضرر الصحى البالغ سواء على الصحة عامة أو على الأسنان خاصة.

الكبار يضعون لفافة التبغ بين شفاههم ونحن نضع المصاصة. هم يشربون القهوة والشاى ونحن نشرب المياه الغازية. ونحن جميعا نشترك فى ظاهرة إدمان تعاطى مواد كيميائية غير لازمة للحياة. وننفق المال الكثير

فى سـبيل تلك المكيفـات فى الوقت الذى مـا زالت أعداد وفيـرة من البـشـر تعيش على الكفاف، بل ويموت جوعاً منهم الكثير.

المسلم لا ينام وبطنه مملوءة بالغذاء طالما هناك أبن لآدم جـائع. فـمـا بال المسلم الذى يمـلأ جـوفـه بمواد كيمـاوية لا فـائدة منهـا بل منهـا الضـرر الكثير. المسلم لا يمنع الخير ولا يقتر فى الأنفاق وإطعام المساكين ولا يدّع اليتيم. وبالأحرى فأنه لا يأتى بنفسه إلى التهلكة سواء بشكل واضح وسريع أو بشكل خافت وبطىء.

١٧- عبادة رب البيت بعد الإطعام والتأمين

أنشـأتنا يا أبتى فى أسـرة. وفـرت لنا بفـضل الله الإطعـام من جـوع والتأمين من خوف.الجائع يعانى ويتصارع من أجل الحصول على مايطعمه. لكى يأكل لا بد أن يقتل. أنه يقتل الحيوان أو النبات ويمعن فى قتله بطهيه ثم مضغه ثم هضمه ثم امتصاصه ثم حرقه والتخلص من نفاياته. الخائف على أمنه دائم التحفز فى حالة استعداد دائم لمواجهة عدو وكثيرا مايدفعه خوفه للمبادرة بالاعتداء على من يراه مهددا له. فى كل الأحوال فهو لا بد أن يميز ذاته ككائن منفصل يتعارض مع كل ما ليس خاص به.أن هذه الحالة من الوعى بالذات المنفصلة ضرورية للبقاء. إنها حالة الثنائية حيث يكون ما هو أنا فيتعارض مع ما هو آخر.

ولكن الأسرة وفرت لنا مطالبنا الأساسية هذه وفاقت فكان بعد الاشباع والاطمئنان دور الاسترخاء والبحث عن الامتاع. الامتاع يأتى عن طريق الحواس. المنظر الحسن والرائحة الكريمة والطعم اللذيذ. وهناك راحة اللمس بدءا بلمس الجماد سواد كان مقعدا محشوا أو حماما مليئا بالماء إلى التلامس بين البشر.

وعند هذه النقطة بدأنا نتعلم أن هناك أنا وآخر فى حالة انسجام بدلا من الصراع. كان هذا بداية الحب. وشاهدت تجسيده فى الزواج حيث يلتقى الحبيبان على مستوى اندماج الخلايا : نصف خلية منه ونصف خلية

منها ويكون الناتج امتدادا مشتركا لهما. يكون آخر ولكنه في الأصل أنا. يكون تحقيق الامتزاج العضوى بين الأنا والآخر.

ولكن الزواج الذى يختصر الطريق بالتسرع نحو الالتحام العضوى يفقد طرفيه الكثير. والتأجيل بالصبر وبالعمل يعد الطرفين للقاء المتكامل الذى يتجاوز الجسد ليشمل الروح. العمل الذى ينتج ما ينفع الآخرين، العمل الصالح المدفوع بالحب يخرج الانسان من وعيه الثنائى الذى يفصل بين الأنا والآخر، ومن حالة الصراع الدائم الذى يعيش فيه.

الذى تعلم التفانى فى عمله، أى التصوف فيه، هو الأقدر على ممارسة التفانى المتكامل فى الآخر بالزواج والإنجاب. أى التصوف فى الحب. أنها النقلة من ثنائية الأنا والآخر إلى الوحدة بالتفانى. هى من صلب التوحيد والأيمان بالواحد الأحد أنى أعد نفسى وتعدنى بتوجيهاتك وبقدوتك للزواج بأن أتفانى فى عملى، وأن أعمل الصالح الذى ينفع احتياجاتى الأساسية – الإطعام من جوع والتأمين من خوف. لكى أتمكن من عبادة رب البيت.

١٨- من الوجود إلى العدم

لم أكن أعرف معنى الموت. أنا وجدت من عدم. ومايبدا لابد وأن ينتهى. فما يبدأ بالعدم ينتهى بالعدم. أنا وجدت من عدم ولا بد وأنى عائد اليه. ولكن بين ميلادى ومماتى فأنا موجود. ولأنى موجود فأنى أفضل الوجود على العدم، والحياة على الموت، والخير على الشر. طالما أنا فى صراع فأنا فى ألم. وأريد أن أنهى الألم. والألم لا ينتهى إلا بإنتهاء الوجود.

مادمت أنا موجودا فلا بد أن هناك من أوجدنى ولم يوجده أحد. هذا هو الواحد الأحد. أنى لا أعيه الا لأنى موجود وأسعى للوعى بالعدم. أعى وجوده حينما أعى الحياة والموت معاً.

لم أكن أعرف الموت حتى أن كدت ألاقيه فى حادث تصادم. عندئذ أدركت أننى باليسر الذى وجدت فيه فأنى قد انعدم فيه. حينما أدركت الموت وأنا حى، أى أدركت الموت مع الحياة، والشىء مع نقيضه أدركت أن الثنائية التى تجعلنى أرى لكل شىء نقيض هى من نتاج كونى موجود وحى. وأن الحقيقة الأزلية الباقية هى الحقيقة الواحدة التى لا ثنائية فيها.

كنت أعتقد أن الإسلام توحيد وأن التوحيد شهادة إلا آله إلا واحد. ولكنى أدركت عندئذ أن القول شىء والأيمان شىء آخر. كان آدم موحدا وكان كذلك نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

ولكن القائلين بالشهادة اليوم، الجموع الوفيرة، مازالت تفضل المال على الفقر، والسلطة على الخضوع، والنصر على الهزيمة. ولابد أن تعى ذلك طالما هى موجودة. ولكن التوحيد يعنى أن يعى المرء الوجه الآخر، وأن كل من عليها فان. وأن لا بقاء إلا للباقى وحده. هو ذات الباقى الذى أبقانا فى حالة الثنائية التى نحن فيها ولكن موصيا ايانا، بل آمرا لنا، أن نسعى نحو التوحيد. أن نكدح كدحا إلى ربنا فنلاقيه. أن ندرك أن الدنيا ماهى إلا لعب ولهو ولكن مع ذلك نحياها بكل قوة حتى ونحن نسعى للآخرة.

١٩- أنا مصر التوحيد

لقد ولدت والتوحيد فى دمى. كنت أرى روح الله فى كل شىء فأخطأت التفسير باعتقادى أن هناك آلهة عديدة. ثم أخذت أميز بينهم وأضع أحدهم على رأس القائمة. ثم خفضتهم إلى ثالوث ثم مثنى حتى أيقنت أن الكل يصب فى الواحد.

كان التوحيد فى دمى منذ أن كان النيل واحدا. والمجتمع الذى يعيش عليه واحدا، وحاكمه واحدا. وبحثت عنه باجتهادى فى الأديان حتى صرت الرحم أو الملجأ لكافة الأديان السماوية. وأخيرا أخترت الإسلام طواعية. وتأكيدا لكنه طواعية تركت البعض منى على يهوديته وقبطيته. ووثقت أن فى النهاية فهم يصدرون من أب واحد.

أنا ابن النيل الذى بحث عن الواحد وأخذ بالأيمان به عبر عدة مراحل ومحاولات. لم تكن أى واحدة منهم سلاحا يسيطر به مستعمر على. بل كان سلاحى لابسط أصالتى وعراقتى.

اليوم يقولون لى أننى بمصريتى أنفى عروبتى وأنفى إسلامى ولكنى أقول لهم أن العروبة عربية بمصريتى والإسلام إسلام بمصريتى. فمن مثلى حفظ وحافظ على تراث العروبة والإسلام ؟

أنا مصر الراعية لمسلميها ونصارها ويهودها فأوكد بذلك إسلاميتى

وعروبتى. الإسلام جاء تتويجاً لما سبقه من أديان. والعروبة تحوى المسلم والنصرانى واليهودى.

بل زرعوا لى عند عنقى يهودية غربية فصارت غريبة وزادت غربتها حينما اكتشفت أن نصف سكانها، وهم النصف المتكاثر، من يهود الإسلام والعروبة. ولاح الخطر أن يعود الذوبان فى الكيان الكبير الواحد. فأصروا على اشعال الفتنة. بل أشعلوها بين مسلم سنى ومسلم شيعى.

ولكنى مصر أم التوحيد، لن أنزلق إلى حريق التناحر. أنا مصر الواحدة الموحدة وسوف أحوى فى رحمى التعددية المتناثرة المتناطحة حولى. أنا مصر ابنة آدم وأم البشر. ولن أقتل أولادى بعد اليوم أو اتركهم يتقاتلون. أنا مصر السلام بعد مرير قتال.

٢٠- كل الناس من خلال رفيق واحد

أنشـأتنى فى أسـرة ومن خـلالهـا علمـتنى كـيف أعـد نفـسى لتكوين الأسرة. شاركتنى الصواب والخطأ. أملا فى أن أستفيد من تجاربك فأحد من الأخطاء وأزيد من الصواب. مثلما تعلمت من أسرتك واقتصرت أخطاء أبيك وتشدقت بمحاسنه. الوالد هو الوحيد الذى يسعد بأن يجد آخر أفضل منه. وهذا الآخر هو ابنه.

بدأت وجودى جسدا يتلقى الرعاية الجسدية من مأكل وملمس وملبس وحركة. كان جسدى هو محور وجودى ومصدر متعتى حتى نما. وأكتشفت أن متعته تتضاعف إذا ماوجد صدى لها فى جسد آخر يستمتع بما يستمتع ومثلما يستمتع. وكانت قمة المتعة تتمثل فى ذلك التلاحم العضوى الذى يدفع جسد الرجل نحو جسد المرأة.

كانت المرأة جسدا بالنسبة لى مثلما كنت أنا جسدا بالنسبة لها. كان هذا احساسى فى غمرة فورة نمو جسدى. ولكننى سرعان ماتذكرت أن لى أم ولى أخت ولك زوجة. وأن الزواج لم يكن مجرد التحام جسدين بل كان الالتحام هو مايستمر بعد هذه اللحظة. بل أنه يبدأ قبلها ويكون الإلتحام الجسدى نقطة عابرة فى طريق التحام طويل لا ينتهى. التحاما يحوى فى حضنه دوائر متزايدة الاتساع، تبدأ بأجسادنا وعقولنا وقلوبنا ثم تمتد لغيرنا. ونصبح أولادك ضمن أولاد كثيرين، ولنا أخوة فى كل مكان.

تعلمنا أن نؤجل الرغبة المستعجلة لاختصار الطريق بحثا عن التلاحم السريع والحاد الذى يقتصر على الجسد. تعلمنا أن نعد أنفسنا للزواج بغية تكوين أسرة تلحمنا بالمجتمع الأكبر وبالأنسانية جمعاء. لم يعد الأمر جسد رجل وجسد امرأة. ولكن عقل يتشبع بالعلم وقلب يتدرب على الحب. وعمل نخدم به بلا انتظار عائد. ثم اختيار رفيق ينوب بشخصه عن كافة من يشبهونه، امرأة تمثل كل النساء أو رجل يمثل كل الرجال. لنتفرغ بعد ذلك للمستويات الأرقى من البذل والعطاء.

أنى أعمل لأعول نفسى ولاعول أسرتى. وأستمر أعمل لأعول كل من لا عائل له. لا الحاح فى أن أجعل من كل من أعول زوجة أخرى أو أمة تملكها يمينى طالما هناك رجال ومثلهم من النساء. وطالما فرص العمل تتوفر للجميع.

٢١- عن النفس الأمارة بالسوء إلى النفس الواحد

قالها لقمان وهو يعلم أبنه الحكمة «يابنى لاتشرك بالله». وقلتها لى نقلا عنه. «لاتشرك بالله». أخذت الأمر ببساطة. لا أشرك بالله معناه أن أشهد أن الا آله غيره. الجميع يرددون العبارة فى السراء والضراء. وأنا ضمنهم. لا آله إلا الله.

ولكن هيهات. فليس الأمر بهذا اليسر. وليس الأمر بعبارة نرددها آليا وبلاوعى أو إدراك لمغزاها اليومى. أهم بالقيام بواجباتى الدراسية. أكتشفت أن قلمى فى غير مكانه ولا أتذكر أين وضعته. أزمجر وأفقد توازنى. أغلى غيظا وأسب وألعن. أنى أمارس إرادة أن أعلم ما لا يعلمه إلا الله. وأن أفعل غير مايشاء. أن أعلم أين وضعت القلم وأن أجده. أضيع طاقتى فى صراع بين ارادتى وارادته وجهلى وعلمه. إن النفس لأمارة بالسوء. تأمرنى أن أفعل غير ما يريد. ولكن النفس لوامة. فأستغفره وأطلب التوبة مسلما ارادتى له. تطمئن النفس حينما ينتفى الصراع. النفس راضية بما رضى به الله وهى بعد مرضية، يرضى الله عنها وترضى عنه. النفس ذات الفجور هى أيضا النفس ذات التقوى. هى النفس المسلمة المؤمنة الآمنة.

وعندما يختفى الصراع تتفجر إمكانيات النفس الواحدة الموحدة. عندما تسلم النفس إرادتها لله تتسلم ارادته. إذا آمن العبد بربه وفنى إرادته

فى ارادته صار ربانيا وقال للشىء بأمر ربه كن فيكون.

النفس المطمئنة تريد أن تعمل بلا ضجر. تريد أن تطيع وتخضع للواجب لا للرغبة أو الأمر السوء. الخالق يريد العبادة من عبده فى عمله ومعاملته. يريد منه أن يعمل لا ليرضى أحدا إلا إياه. أن تؤمن به وحده ولا تشرك بعبادته أحدا .

القلم المفقود مفتاح العمل. القلم يظهر بأمر الله. أتذكر أين وضعته. أو لا أتذكر ولكن أترك يدى تذهب نحو مخبئه فتظهره. أجد القلم لأنى أردت ما أراده الله لى : أن أعمل وأن أسلم ارادتى له وأن أخالف النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعصيهما . أن أؤمن به وحده، وأن أتركه يفعل بى وفى ما يشاء.

أعمل وأنا بلا صراع مع ارادتى وأوامر نفسى بالسوء وبلا صراع مع إرادته. أعمل وأنا مؤمن به موحدا . أعمل لأن ليس هناك فى هذه اللحظة إلا واحد. إله واحد وعمل واحد. لا أشرك به. لا أعلى إرادة على إرادته. أنتفت نفسى الوحيدة وصرت من النفس الواحدة.

٢٢- أريد ما لدى فلدى ما أريد

أنى أريد. وطلما أريد فهذا معناه أننى محروم مما أريد. أشعر بألم الحرمان. فأبحث عما أريد لأحصل عليه ولأشبع. ولكنى لا أشبع. لأن القضية ليست مجرد أنه ليس لدى ما أريد ولكن أننى أريد أصلا ما ليس لدى. فبعد أن أحصل على ما أريد. أستمر أريد فأطلب المزيد مما حصلت عليه. يلهينى التكاثر بلا توقف حتى يأتى موعد زيارة المقابر.

مادمت لا أحصل على ما أريد فأستمر أريد فأتألم جوعا فلا بد أن أريد ما أنا حاصل عليه. فيختفى الصراع بين إرادتى وما أنا رائد الحصول عليه.

إلا أنى بشر. ولأنى بشر فأن لى إرادة. لى إرادة النفس الأمارة بالسوء. والله خلقنى وألهمنى الفجور والتقوى. فإذا نفيت الفجور ونفيت الأمر بالسوء فأننى بشكل ما أعارض إرادة الله. الله ميزنى على الملائكة بقدرتى على العصيان. فإذا أطعت فقط ولم أفعل إلا الخير ونفيت أمر نفسى بالسوء فأننى أعصى إرادة ربى أن أتميز عن الملائكة.

ولكننى إذا عصيت فقط فقد صرت من الشياطين. فهى غير قادرة إلا على العصيان. هكذا خلقها الله عاصية مثلما خلق الملائكة مطيعة. أما أنا فمن طين. فى العصيان وفى الطاعة. إذا عصيت استيقظت النفس اللوامة.

فأجدنى أتجه نحو الندم والتوبة.

وا رباه ! اننى فى حيرة إذا أطعتك عصيت. وإذا عصيتك أطعت.

ثم يظهر المخرج فى الآفاق. حينما يشتد بالنفس الظلام وهى حائرة فى بحثها عن الصراط المستقيم. أطيع أمر الله فى عصيانى له بأن أترك للنفس الأمارة بالسوء العنان ولكن ملجمة بحدود الله. أريد الجنس فلأتزوج. أريد الراحة فلأعمل.

إنى أفعل ما أريد ولكن فى إطار مايريد. أنى أمارس إراتى ولكن فى حدود إرادته. فأكتشف أن لى ما أريد لأنى أصبحت أريد ما لدى. أعطى لنفسى الأمارة بالسوء حقها لتطالب النفس اللوامة بحقها بالتالى. ويحسم الصراع حينما تنظم النفس المطمئنة التعبير عن الإرادتين والتنسيق بينهما. فتسلم بذلك إرادة النفس المنفصمة الى النفس الواحدة. تفنى النفس المنفصمة فى النفس الموحدة الواحدة. فأنتقل من التعددية إلى التوحيد.

٢٣- عذاب النفس عند عطيل

أستمع إلى المسرحية الغنائية «عطيل» المأخوذة عن مسرحية الشاعر العالمي وليام شكسبير الإنجليزي الجنسية والذي لحن لها الموسيقار العالمي الإيطالي الجنسية جيسيبي فيردي. أتوحد مع البطل. فهو بطل. وهو بطل رغم أنه أندلسي عربي مسلم أسود، عائد من رحلة نصر لأمته.

إن وجهه الحسن هو ما يظهر لنا في الواجهة. أما نفسه الأمارة بالسوء فتتشخص في صاحبه. اياجو الذي يعبد الشيطان ويريد النصر لإرادة الموت على الحياة، والكراهية على الحب والأنانية على الإيثار. كاسيو الذي يمثل النفس الشابه الراغبة المندفعه ولكنها نقية ووفية. ورودريجو الذي يمثل الرغبة الشابة الجامحة. وديزديمونا التي تمثل الأغواء بالراحة التي لا توجد إلا في الجنة بعد الموت. يغرق عطيل في التحامه بها حين يوازي بين لحظة البهجة هذه والعمر بطوله فيرحب بالموت.

عطيل البطل مطالب بأن يستمر بطلا. أن يفني في خدمة قومه بقيادتهم في الجهاد وبتنظيم أمور دنياهم. ولكن الكفاح أنهكه وهو يحلم براحة الموت، كما تذوق بهجتها في أحضان ديزديمونا.

أياجو لا يريد راحة الموت ولكن جحيمه. لابد أن يقف بين عطيل وديزديمونا. وأن يجعل من حضن ديزديمونا شرك الوقوع في الجحيم.

ديزدمـونا يجب ألا تكون المطمـئنة لنفس عطيل بل المحبطة المغرية الخـادعة المتجـهة لغيره. وكازيو يجب ألا يكون مصـدر طمـأنينه عطيل بوفاء ضـباطه وهو حال رودريجو الذى يرغب ديزدمونه. لابد أن يوجه الرغبة نحو كازيو فى اتجاه ديزدمونا ليحرم عطيل من طمـأنينة وفاءهما له، ويوقعه مع رودريجو. فيوقعهما أولا فى أم الكبائر : الخمر. فتشتعل معركة بينهما.

عطيل البطل ويثق فى وفـاء جنوده وضـباطه له. والشيطان هو إياجو. هذا مـايبدو على السطح. ولكن الموت حينما يوجـه نحـو ديزديمونا فـأنه ينال من عطيل وحـينمـا يفـقـد عطيل وفـاء ضـبـاطه يموت عطيل فـلابد أن يموت إياجو. الجميع أوجه متعددة لنفس واحدة.

ولكن إرادة الحـياة ترجح. ويبقى كازيو حيا رغم موت الجميع. يبقى ليكفر نيـابه عن عطيل عن رضـوخـه لنفسـه الأمـارة بالسـوء. ، لإرادة إياجـو. وعن رضـوخه للتعجل بالاستراحة من عناء الجهاد باحثا عن الجنة المبكرة. ويبقى ليتلقى الغفران عن عطيل لما دفعه بالعذاب تكفيرا عن ذنبه.

النفس أمـارة بالسـوء. ولكنهـا أيضـا لوامـة. ومـابينـهمـا قـوامـه النفس المطمئنة التى ترجع إلى ربها راضية مرضية.

٢٤- أبغض الحلال ولكن لا مفر من إكمال نصف الدين

حينما كنا أطفال صغار أدركنا أن دعامة الأسرة، علاقتكما الزوجية تهتز. وكنا نحن أيضا نهتز حينما احترنا حول عند من منكما يكمن القول الفصل الذى لا هو بالهزل. صرنا طرفا ثالثا فى علاقة يستقطبنا كل من القوتين العظمتين إلى صفهما.

كنا حيارى لأننا كنا نحبكما. ولكن ما دمتما مختلفين فلابد أن أحدكما مصيب والثانى مخطىء. ولكنك أقنعتنا أن الإختلاف يمكن أن يقوم بين طرفين مصيبين. وعلمتنا أن نود ونحترم أمنا رغم أنفرادك بتسلم زمام أمورنا. كما علمتنا بعد ذلك أن نود زوجتك وأن نحترمها. وفى ذلك نحترم الأسرة القائمة على الزوجية والبنوة والشورى والاختلاف فى ظل وحدة القرار ووضوح القيادة.

وحتى بعد ما اتخذتما القرار بقينا فترة حيارى. لعلنا لو تمادينا فى حيرتنا وقلقنا لأثنينا عزمكما على الأنفصال ولأعدناكما. فالضغوط المحيطة كلها كانت تشير إلى المبرر التقليدى للمحافظة على الشكل الخارجى للأسرة وهو «من أجل الأولاد».

نعم يحتاج الأولاد الى نمط يتعلمون منه كيف يصيروا يوما هم أرباب أسر. ولكن النمط المهزوز قد يكون أسوأ من غيابه. ومع ذلك فأن إيمانك

بالزواج والأسرة جعلك لا تتردد فى الزواج مرة أخرى.. من أجلك ومن أجل أولادك. وباركنا زواجك وسعدنا به. فالأسرة لا بد لها من رب ولابد لها من ربة. ولابد أن يكون القرار فيه موحداً. نتشاور ونختلف.. نعم. ولكن ألا يكون هناك خط واحد نلتزم به جميعا فهذا يحير. وفرت لنا حرية الرأى الإختلاف وأشركتنا بالشورى فى جميع أمور الأسرة. ولكنك كنت واضح فى حسم القرار والإصرار على تنفيذه.

نظرت حولى لأجد من أقاربى من عاش فى أسرة لم يطلق رباها ألا على كبر. فنشئوا طويلا فى ذلك الجو المذبذب حيث لا اتفاق أو قرار موحد، وحيث أجادوا لعبة الاستقطاب ليبتزوا أقصى مايمكن أن يبتزوه من القوتين العظميتين المتصارعتين. فشلوا حركتهما وغاب القرار. واستمرت الحيرة والضياع. وتضاعفت النرجسية الطفلية. أن ينشأ الطفل وهو متيقن أنه مركز العالم وعلى الجميع أن يلهثوا لتلبية طلباته. بقوا أطفالا حتى بعد بلوغ الثلاثينات. وآخرين عاشوا الزواج الموحد فترة ثم الطلاق البائن حين أهتزت العلاقة. وكان الوضوح حليفهم فى المرحلتين، وعرفوا بجلاء من أين يصدر القرار. فشبوا مستقلين نسبيا، ومستقرين رغم غياب الأب ورغم مرارته التى مازالت تأكل فى قلبه.

الزواج سنة ونصف الدين. والطلاق بغيض وأن كان حلالا. وإذا تم فأنه مؤشر إلى وجوب إعادة التجربة بعد التعلم من الأخطاء، لا اليأس

والانزواء فى اتجاه العزلة. الآباء المعزولين المنفصلين أشقياء ويبالغون فى الإعتماد على ارتباط أولادهم بهم فيمنعون نموهم واستقلالهم ويفقدونهم الثقة فى مؤسسة الزواج.

أنت أعددتنا للزواج. وأعددتنا للأستقلال عنك. فنمونا من مقام البنوة إلى مقام الأخوة وعما قريب الأسرة. أولادك كبروا بسرعة وخاووك بسرعة وأن شاء الله سيعاونونك بسرعة.

٢٥- وهبنى الله الحياة وحب الحياة

ولدت محبا للحياة مقبلا عليها. لم أكن أعى أن هناك غير هذا الوجود. ثم فوجئت وأنا بعد فى الثالثة عشر من عمرى أن قريب فى سنى قد مات فى حادث، وأدركت أن اقبالى على الحياة وتمسكى بها من يحمينى من الموت وأن المت يمكن أن يفجئنى فى أى لحظة فأذهب عن هذه الدنيا بلا كلمة وداع لكل من أحببت وأحبنى. تمنيت لو علمت على الأقل موعد مماتى حتى أستطيع أن أودع وأستأذن قبل أن أذهب. وإذا لم أعلم فلعلى أستطيع أن أطلب الموت فعلا فأتأكد من قدوم الموعد فأبدأ بالتوديع.

ثم أفقت. كيف لى أن أطلب مماتى وأنا قد وهبت حياتى ؟ فالذى أحيا هو الذى يميت. والذى وهب الحياة هو الذى يأخذها. ومادام قد وهبها لى ووهب لى معها حبى لها واقبالى عليها فهو الذى يحدد موعد نهايتها. كيف لى أن أجسر على السؤال أو أن أحدد الميعاد ؟

ولأننى أفقت إلى نقيض الظلام فأن إدراكى للنور ازداد حدة لاستطاعتى المقارنة بين النور والظلام. أعرف النور لأنى عرفت الظلام الذى ينفيه، فنفيته.

ولم تكن تساؤلاتى قد وقفت عند هذا الحد. فسألت لم يموت البرىء بينما المذنبون يمشون فى الأرض مرحاً ؟ لم يموت من هو مقبل على الحياة

بينما اليائسون منها يحيون بل هم أموات فى الحياة ؟ لم يموت من تمسك بالحياة حبا ويحيا من تمسك بها خوفا.. خوفا من الموت ؟ لم يموت من كان يستعد ليعمر بينما يبقى المدمر ؟

وبحت بما فى قلبى من تساؤلات وحيرة فوجدت الخائفين يتعجلون الإجابة ذعرا من معايشتى حيرتى. أنهم يتحجرون فى إيمان ظاهرى خوفا من مواجهة شكوكهم الباطنة. ولأنى أفصح عما أبطن أخيفهم من تذكر ما فى باطنهم. فيطمسون حيرتى بالإجابات الجاهزة المبلورة الواضحة. وكأننى لم أكن أملك تلك الإجابات. لم يدركوا أننى بتساؤلاتى كنت أطلب منهم أن يدعموننى فى حيرتى. ظنوا أننى أريد منهم إجابات.

ولكنى لم أخف. فقد وجدتك يا أبتى بجانبى مؤمنا لم تهتز ولم تهرع لتطمس حيرتى. وأستمعت إلى وتركتنى أقول وأنت ممسك بحزم بحدود لا اتعداها فى السلوك. الزمتنى بشعائر وحدود أجمع الناس عليها لكونها من وضع الله. ولأنى تسلحت بهذا الحد الأدنى من الإيمان الراسخ تمكنت من التحليق بالفكر والخيال لأسأل ولأبحث.

كيف يدعى الإيمان من لم يعرف الشك ؟ فالإيمان هو نفى الشك ولكى ننفى الشك لابد من أن نشك أصلا. لقد وهبنا الله العقل. والعقل بطبيعته شكاك. ووهبنا الإيمان الذى يحمينا من الضياع وراء شكوك العقل.

٢٦- لكى أنمو لابد أن أنطلق

نموت خلال شهرى العطلة التى سمحت لى أن أقضيها بعيدا عن الأسرة. نموت خلال هذه الفترة بما يعادل عاما من النمو أثناء غيرها. فقد زاد جسمى طولا وعرضا ووزنا وزاد عقلى علما ومعرفة وزاد وجدانى ارتباطا بأشخاص ليس بينى وبينهم علاقة قرابة. وكانت علاقة القرابة الوحيدة التى أبقيت عليها خلال فترة الأنتقال هذه هى علاقتى بشقيقى الأكبر. وهو قد سبقنى بعامين عبر رحلة الأستقلال عن الأسرة.

ابتى أنى قد نعمت بما وفرته لى أسرتى من مناخ للنمو. ولكن نمو الفرد فى شبابه حاد ومتأزم مثل نمو الجنين فى رحم أمه. إذا كان على الجنين أن يستمر ناميا فعليه أن يخرج من حماية الرحم. والطفل أيضا فى إنتقاله عبر سلم نموه من الطفولة إلى الرشد عليه أن يخرج من حماية رحم الأسرة.

إن حماية الأسرة ضرورة لنمو الطفل. ولكن الحماية إذا مازادت أو طالت أصبحت خانقة. ويبيت على الطفل أن يختار بين أن ينمو فينفجر داخل الرحم فيقتل أمه أو أن يوقف نموه فيموت.

كانت حاجتى إلى النمو ملحة. كان عقلى يقفز ناميا أمام جسدى. كنت كثيرة الأسئلة ومتعطشة للمعرفة. ولم تكفينى الإجابات الجاهزة

المعتادة التى احتميت فيها . كانت ضرورية لى لتوفير لى الحد الأدنى من الأستقرار بما يجعلنى أقفز وأنا مطمئنة أن لى قاعدة يمكننى أن أعود اليها . وكان لابد لى أن أخرج بل أن أقفز حتى أنطلق من حماية شرنقة الصبا لأتحرر مثل فراشة الرشد .

لم تقف فى طريقى يا أبتى بأسم الحماية ورغم صغر سنى. ولكن بفضل عقلى النامى استمعت الى صيحة ميلادى وأنا أسعى للخروج من حماية الشرنقة إلى مواجهة الحياة. لابد أن تنمو لى جنحان تجعلنى أحلق وأطير وأبعد فأعود. ولما نما عقلى ووجدانى نما جسدى تباعا .

الجسم السليم فى العقل السليم فحينما خرجت التهمت العالم حولى. نهلت من بحر المعرفة وتفاعلت فى محيط الوجدان بل التهمت من خيرات الأرض من طعام حتى نموت بما يكاد يشبه الفجائية.

سأعود إليك لأكمل طريقى وأنا مجددة. فما زال أمامى طريق طويلة من المثابرة والبحث، من الشك والإيمان. وسوف احتاجك بجوارى كى لا تجرفنى الرياح أو تغرقنى السيول. سوف أطير وسوف أسبح دون أن أقع أو أغرق. سوف استرشد بك وأنا فى أعلى السماء أو فى قاع البحار.

٢٧- الصراع والنفس المطمئنة

لماذا قتل قابيل هابيل وأوشك ابراهيم أن يذبح ابنه ؟ لماذا يتقاتل أبناء الأسرة الواحدة ؟ ألم تخلق الزوج للزوجة ليئتنسا بعضهما ببعض؟ وجعلت من البنين والمال زينة للحياة الدنيا ؟ ألم تجعلنا شعوبا وقبائل نتعارف لانتقاتل ؟

ومع ذلك فالدورة تعود. النفس الأمارة بالسوء تأمر والنفس اللوامة تنهى. فإذا انتصرت الأولى برهة تبعتها الثانية بأعلاء القصاص والندم والتوبة. أن متعة ترك العنان لغرائز الدمار لتسود يقابلها ألم المعاناة من آثار الدمار والندم على ماحدث.

طالما نفسى أمارة بالسوء، تواجه نفسا لوامة فأنا فى صراع دائم. صراع بين اتيان الذنب والندم عليه. وفى كلاهما ألم ومتعة ولكن ألمهما أكبر. فهى متعة أن أفعل ما أريد دون روادع. وهى متعة على الجانب الآخر حين أندم وأنعم بنول الغفران ممن أمرنى وعصيته. ولكن الألم الأكبر فى الحالتين أننى أن دمرت فإنما أدمر من أكره فأفنيه فأدمر من أحب فأفنيه فلايبقى غير أن أدمر نفسى فأفنيها. وأننى إن ندمت وطلبت العفو والغفران عشت عذاب الخوف من آثار العصيان وإنتظار العفو حتى يأتى فأبدأ من جديد. أعصى فأندم فأعصى.

كيف أنعم بالنفس المطمئنة ؟ إذا تجاوزت الأمر بالسوء والندم. إذا عشتهما كاملتين حتى أشبع منهما فأخرج منهما وأنسلخ وأنظر إليهما من بعيد. وكان هناك صراع بين طرفين وأنا الحكم الثالث الذى ينتظر حتى يكتشف عدم جدوى الصراع فيطلبان التعايش ويقبلا حكمى وحكمتى.

أوزع الحدود عليهما. وأوجه طاقاتهما المدمرة فى اتجاه بناء. ليتحول الصراع من صراع بين نقيضين يسعى كل منهما إلى نفى الآخر إلى نقيض يكمل كل منهما الآخر.

النفس الأمارة تريد أن تدمر. فلتدمر الحجر وتصنع منه طوب ولتدمر القديم وتصنع منه جديد. النفس اللوامة تريد أن امتنع عن التدمير. سوف أدمر فى حدود وفى اتجاه. أدمر الحجر لصنع الطوب لصنع المنزل. ففى البناء تكفير عن ذنب التدمير. ومادمت قد وضعت الحدود للتدمير فقد استطعت أن أجعله جزء من عملية متكاملة - تدمير يؤدى إلى بناء.

هكذا تطمئن النفس. بأن تقبل ماينفيها فتنفيه. أن تقبل نقيضها وتتناقض معه فى إطار قبول. أن تتصارع وأن تتجاوز الصراع.

٢٨- الانفصال قبل الانفجار

أنشـأتنا يا أبتى فى ألفة الحياة الأسرية ودفئـها . عـشنا مـعـا . ولكن كـانت لك حيـاتك الخـاصـة. ولذا فكان انفصـالنا فى غـرفـتين مـبكرا . بدأنا حيـاتنا فى غـرفـتين. ولم تفـعل مـثل أغلب الناس : غـرفـه ينام فـيـهـا الجـمـيع وغرفه للمعيشة والضيوف. ولكن وضعت الأولوية لأن يكون لنا مكان خاص بنا . غرفة ننام فيها ونلعب ونعمل ونأكل. وأخرى لك كاملة الوظائف.

ولما بلغنا سنا ما فى الصبا أصررت على أن الأولوية هى أن تكون لى غرفة ولأختى غرفة. وأما غرف الطعام والضيوف فتأتى فى المرتبة الثانية. تربيـتنا أن يكون لكل منا كـيـان ذاتى ومـسـتـقل. وكـان أهم من المظاهر الإجتماعية. فكان لى أصدقائى ولأختى صديقاتها . ولكل منا كيان ومكان وحدود.

ثم كبرت وصـغرت الحـجرة. لأن الحـجرة فى بيت والبيت فـيه أسـرة. ولكل فرد فى الأسرة حق فى البيت. وأنت تريد لى كيانى المستقل وأنا أريده بنفس القدر.

ابتـعـدت عنكم بآلاف الأمـيـال. ولكن بفـضل هذه المسـافـة الجـغـرافـيـة استطعت أن أقترب نفسيا . ابتعدت بأرادتى فأستطعت أن أقترب بأرادتى. أرى أقارب لى مازالوا فى حضن الأسرة لا هم أرادوا الأنفصال ولا الأسرة

أرادته لهم. والنتيجة أن الأنفصال الحتمى يفرض نفسه عليهم. فيأخذ صورة الأنفجار والأنفطار والأنشقاق بل والدمار المتبادل. فالحضن الذى يحمى يستطيع أن يخنق. والمختنق الذى يريد الهواء يستطيع أن يدمر من يخنقه أو يفرط فى حمايته.

حيرتنى هذه الظاهرة. أن أرى الشر يأتى ممن أُحسن اليهم إلى من أحسنوا إليهم. الأبناء يطعنون الآباء حتى ولو كان الطريق إلى ذلك هو طعن أنفسهم ليغيظوا آبائهم. تعلموا باللفظ ألا يقولوا لهما أفا ولاينهروهما وبهما أحسانا.

ولكن الممارسة جاءت بأن تحمل الآباء أول أف فتلتها الثانية فتمادى الأطفال فى التأفف وأدمنوه. استجاب الآباء بالأفراط فى التحمل لأف وراء أف تقال من ابن عاص. ولم يقدموا للأطفال مايحتاجونه من كف عند الوصول إلى حد ما. لكى يتوقف الولد عن قول الأف لابد للأب أن يعرف كيف ومتى يكف.

وإذا كان التوقيت فى الحوار ملائما، جاء الأف وكفها على هيئة اتفاق لاخلاف. أن يقول الابن للأب أريد أن أستقل فى ذات الوقت الذى يعده الأب فيه ليستقل. فيتم الأنفصال بلا دماء ولادموع. بل يتبع الأنفصال لقاء أرادى حر أرقى من اللقاء الالتحامى الأول وبدونْ المرور بمرحلة الانفجار.

٢٩- السوط وراء ظهرى والكتاب بيمينى

واجباتى اليومية عديدة. والتحدى لانجازها ملح. فأنا مطالب بأن استذكر مناهج محددة. لا توجد فرصة للتأمل. أنى فى سباق ولا فرصة لى إذا تأخرت خطوة. الامتحانات كالسوط الذى يلهب ظهر الدابة فتعدوا دون أن تتوقف لتسأل إلى أين. أنى لا أسأل إلى أين ولماذا ولكنى أعدو.

ولكن الحياة دورات. فيها الليل وفيها النهار. فيها الشتاء وفيها الصيف. وتأتى عطلة الصيف. وأتوقف. وأتذكر أسئلة عبرت ذهنى سريعا حينما كنت أعدو. أسئلة دارت حول خبرات مررت بها أو سمعت عنها. لم توقفنى فى حينها. بل كدت لا أعيها وهى تطفو على سطح عقلى وسرعان ماتعود إلى ماتحت الوعى. الآن تلح على، وأتذكرها بوضوح.

أننى الآن فى دورة التأمل بعد ما أكملت دورة العمل المزدحم. الآن أسأل إلى أين ولماذا. أحلق فوق خبراتى التى عشتها وغصت فيها فلم أرى غيرها. أنظر إليها من بعيد وتبدو كلها صغائر. كله فان. ولا بقاء إلا للأحد. إنها كالمسرح والكل يلعب دوره فيه حتى ينتهى ويأتى غيره. ولا أحد يعرف أين بدأت وإلى أين تؤول. ولكن الكل يلعب دوره بمنتهى الجدية والحماس.

ثم أخاف. لو كان هذا الوجود فى الآخرة هو وجودى الحقيقى، بينما وجودى الدنيوى وهم، فكيف استمر حيا مشاركا الأحياء بهجتهم فى الحياة

وحماسهم لها وآلامهم فيها ؟ كيف ألعب دورى فى الدنيا بجدية وأنا لا أدرى شىء عن معناها ؟.. لا أعرف إلى أين أو لماذا.

الخوف رهيب. فهو خوف من أن أنتفى وأصير عدما. ولذلك فأننى أقفز فى حضن الدنيا قفزا. أهرع إليها وأغرق نفسى فى همومها ومتاعها. فقد أكدت على شىء وتلقيته منك بثقة، وهو أن هناك وأحب والتزام. وأن على أن أؤديه بأجادة وبحماس حتى يحق لى آجلا أن أتوقف متأملا. أن الغرق فى التأمل قبل ذلك بمثابة الاستسلام والانسحاب. سأعدوا والسوط وراء ظهرى. وإذا وقع السوط فسأحمله وأعيده إلى مكانه ليلهب ظهرى لأعدو.

نعم أيها الإنسان، إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه. فلتعدو حتى بلا سوط وراء ظهرك. المهم أن تلاقى ربك وكتابك قد أوتى بيمينك.

٣٠- من الفرد إلى الجماعة طلبا ليد الله

ذهبت إلى صـلاة العـيـد مـبكراً. كـان الحـاضـرون قلة. ولم يكن الميكروفون قد بدأ يعمل بعد. كانوا يرددون التكبير. كان هناك من يتحمل مسئولية إيقاع التلاوة. لم يكن قائدا رسميا أو معروفا. ولكن لقلة العدد حدث نوع من الأنسجام. فالقائد يسمع المكبرين فيقول فيقود فى حوار متبادل. بل كان يمكن أن يقود أى آخر مكانه إذا تعب. فالجماعة هى التى تقول. والجماعة قد انسجمت على إيقاع ونغم وسرعة تعكس شخصيتها. الجماعة صار لها وجود. والقائد لم يكن إلا المعبر عن هذه الشخصية. إذا ما انحرف ازاحوه واتبعوا غيره.

ثم جاء الميكروفون وأمسك به قائد. وكان صوته المنفرد يعلو على صوت الجماعة فيكاد يطمسه ناهيك عن كونه قادراً على الاستماع اليه والتحاور معه. تحول الحوار الى القاء ووتلقين من جانب واحد. تحولت المشاركة الجماعية الى قهر فردى للجماعة. طغى القائد على الجماعة وقتل روح الانسجام التى كانت تسودها.

إننا نستورد أسوأ ما فى التكنولوجيا الغربية لنطمس أفضل مالدينا. بينما يعانى الغرب من الأفراط فى الفردية وكنا نمتاز عنه بالروح الجماعية. ثم أصبحنا نأخذ بأسوأ مافى الأثنين : فردية القائد الذى يطغى على جماعة مقهورة.

لقد علمتني يا أبتي أن أبني شخصيتي واتفرد : بدءا من استقلالية منامي إلى استقلالية تعليمي ومعيشتي المنفصلة. ولائي الاجتماعي بانتماءاتي للمجتمع المصري كأساس، ثم المجتمع العربي كامل قريب، ثم المجتمع الإسلامي بدءا من المستوى التاريخي الحضاري إلى المستوى الإنساني العام فالمجتمع الإسلامي هو الحلم. والحلم قد تتحقق اجزاؤه ويتحقق جزئيا . أرى صفات المجتمع الإسلامي حولي هنا في العالم الغربي اليهودي المسيحي تاريخيا بينما أجد بعض صفات المجتمع الغربي تتسلل وتتفشى في مجتمعنا المصري والعربي والإسلامي التاريخي الحضاري.

إن ولائي النهائي هو لله. ولكن علي أن أصل إليه عبر درجات. مصر نقطة بداية. والعالم العربي يتبع ثم العالم الإسلامي. ولكن النهائي والأعلى هو الله. وذلك هو ولائي لجوهر القيم الإسلامية حيثما وجدت وبأي اسم سميت.

٣١- بأى ذنب قتلت ؟

« وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت»

- أسألك يا أمى. لماذا قتلتينى وأنا بعد طفلة بريئة فى الخامسة من عمرى.

- أسأل نفسى يا ابنتى : لماذا قتلتك ؟ نعم عشت سنوات مهددة بتلك النوبات الاكتئابية الحادة. ساعتها تظلم الدنيا فى وجهى. وافقد ماتبقى من احترام وحب لنفسى. أنا لا أسوى شىء. أنا أم فاشلة. عاجزة عن توفير الدفء والمحبة لأسرتى. وجودى أسوأ من عدمه. فالجميع يتعذبون حولى. أردت أن أموت لاستريح. ولكنى تمسكت بالحياة من أجل أسرتى. وأيقنت أنه مهما ساءت حالتى. فأنى أم وأفضل من لا أم. قررت أن أعيش ولكن غريزة الموت، نداء الشيطان، تغلبت. وهممت بابتلاع الأقراص وخرجت عن وعى وإن لم تشل إرادتى زال الحاجز بين لاوعى ووعى. كان فى لا وعى ذلك اليقين أن أولادى جزء منى. فلا حياة لهم بعدى. ولذلك لا بد أن يموتوا معى.

فقتلتهم. ولكن الله إرادنى إن أحيا لأدفع الثمن بعذأبى المتضاعف. وأصبح بقائى اليوم عذاب لن يخففه إلا الفناء.. فناء الجسد أو فناء العقل. أما أن أموت أو أن أجن تماما. فأنسى ماحددث أو أقبل الأكذوبة القانونية

أننى بريئة من الجريمة طالما كنت خارج وعيى. فالحقيقة التى تفرض على هى أننى الفاعلة وعليه يجب أن أموت. الموت أخف العقوبات. ولذلك فالقانون حينما يبرئنى إنما يوقع على عقاب منفذه هو متلقيه. سوف أعاقب بالجحيم مدى الحياة وفى الآخرة.

الموؤدة تسأل بأى ذنب قتلت. وهم يقولون أننى بريئة. ولكننى مذنبة وربما بريئة فى ذات الوقت. قتلت الأولاد خوفا عليهم وعلى أن يعيشوا بلا أم. ولكنى نسيت أن الله يرزق كل مخلوق خلقه ويرعاهم وأننى كان يجب أن احترم رغبتهم فى الحياة وخلق الله لهم.

كيف استعيد حياتى ؟ الموؤدة سئلت. وجاء يوم الحشر. وحان موعد موتى. ولكن الموت بمثابة بداية الميلاد الجديد. فرصتى أن أولد من جديد. الجميع حولى يغمرونى بالرأفة. المسئولين والأطباء والأهل بل وزوجى الحبيب لابد أن أعيش من أجلهم. لابد أن أبقى على ماتبقى من إيمان بالحياة. لابد أن أعيش من أجل أسرتى. وأن أبدا أسرة جديدة. واتفانى فى خدمتها. هكذا يعود أولادى. وهكذا أكفر بعذابى وبإيثارى عن ذنبى. أغسله وأولد من جديد. التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٣٢- ماذنبى أن ولدت فتاة ؟

يا أبتى المؤودة قد بعثت تسأل بأى ذنب قتلت. نسألها بأن أسأل : ماذنبى أن ولدت فتاة ؟ ورثت مع أخى صفات الإنسان ولكننا اختلفنا بأن كنت أنا أنثى وهو ذكر. لبسنا لباسا مختلفا. ثم ذهبنا إلى فصول معا، ندرس وننمى عقولنا. ثم فصلتونا حين أوشك كل منا أن يدرك بجسده وأحاسيسه أن هناك اختلاف. وأن الاختلاف يجعل قطبيه يتجاذبان وهم يتنافران. كل منا يحمى موقعه ويريد أن يذيب الآخر فيه.

أنفصلنا وكل ينمى عقله وحده، نتوازى لانتقاطع. منعتونا من التقاطع حتى نبلغ فى التوازى مدى يجعلنا نكاد نتساوى عقلا قبل أن نتزاوج قلبا. كدنا نتساوى إذ أثبطتم طموحنا بأن حددتم لنا مهمة نتفرغ لها سنوات عديدة. تلك مهمة الأنجاب ورعاية النشىء على الأقل فى سنينه المبكرة. وقبلنا بصدر رحب. فنحن نعلم كم بذلتم لرعايتنا، وأن مانبذله فى رعاية أبنائكم يامعشر الرجال معنا، سوف يلاقى بالتقدير منكم. أنتم تعملون وتكدحون. وزبدة عرقكم سوف تذهب لأولادكم.

هل فى ذلك قيمة أنحط بسببها على السلم الاجتماعى ؟ ماذنبى أن ولدت فتاة ؟ أتنافس مع الرجل على ماذا ؟ إن جمع المال وكدس السلاح ودمر الطبيعة ويوشك أن يدمر الحياة بأسرها ؟ هذه قيمكم يامعشر الرجال.

ولكن كيف تسمعوننا ونحن بمقاييسكم ضعاف ؟ سوف نقبل التحدى وندخل السـبـاق لا لنخلعكم لنحل مكانكم ولكن لنحـرركم من دور الظالم. نسـتطيع أن نفـعل مـثلكم وندخل صـرا ع الغـاب من أجل المال والسلطة الدنيوية. سوف نرى معكم متا ع الدنيا ولكننا سوف نريكم أن الآخرة خير وأبقى. البقاء لبقاء الحياة.. تبقى لتسعى كادحة نحو آخرتها. تبقى لتفنى. تبقى بأمره وتفنى بأمره. ورسالة منه نحملها بأن نعمر الدنيا ونكون له فيها خلفاء.

٣٣- النور من نار الحريق

يا أبتى أنت تحترق. ولكن تدفعنا عن نارك كى نستنير بنور احتراقك. النار ضرورة لوجود النور. والشر ضرورة لوجود الخير. ان تحترق بداخلك وتغلف الحريق بطبقة يابسة تحمينا منها. والطبقة اليابسة أيضا شفافة تسمح بمرور النور. ننطلق بعيدا عنك نبحث فى الدنيا ونعلم أننا نرى مانرى لأن نارا تريه.

نلتفت إليك. ونسعى للأقتراب منك. صيحاتك المكتومة تنادينا. ولكنا إذا اقتربنا دفعتنا ورسخت قناعك. تتماسك والغليان بداخلك. وتمنعه عنا لأنك تعلم ماذا يغلو فينا. نريد أن نحيا ونفهم من هذه الدنيا. نريد أن ننمو ونتطور. القناع اليابس يحجرنا ويجمدنا. ألبستنا أقنعة حتى لانتأثر ولا نحترق. ومنعت عنا نارك ودفعتنا بعيدا ننهل من نور نارك. حتى نتعلم كيف نحترق دون أن نفتت الأقنعة. فالأقنعة ضرورة لدرء النار. وشفافيتها ضرورة لنشر النور.

النار بلا نور دمار. والنور بلا نار فتور. الضوء الدافىء يجذبنا. العقل المصحوب بقلب مسعانا.

عقولكم الباردة قوية، تسيطر على مسار الأمور. ولكن الثمن يدفعه القلب فتورا. يفقد نبضه.. يفقد حب الحياة. وينتشر الدمار. وتموت العقول

بغياب القلوب. فتفيقوا وتقولوا : تعالوا واستمروا متحابين متآخين مستمتعين بالحياة.. متحدين لا تفرقكم الأحقاد. مررنا برحلة الشباب مثلكم وبلغنا الرشد تعلمنا فنون القتال وندخل صراع الغاب من أجل المال والسلطة الدنيوية. سوف نرى معكم متاع الدنيا ولكننا سوف نريكم أن الآخرة خير وأبقى. البقاء لبقاء الحياة.. تبقى لتسعى كادحة نحو آخرتها. تبقى لتفنى. تبقى بأمره وتفنى بأمره. ورسالة منه نحملها بأن نعمر الدنيا ونكون له فيها خلفاء.

٣٤- بين عقل الكليات وعقل الجزئيات

أرانى حائر بين عقليتين. أم قل هما عقلين لشدة مابينهما من تباين. فعقلى الذى تدرب طيلة الصبا على كيفية كبح جماح الطفولة صار يفكر فى إطار ضيق ومركز. كان هذا ضرورة لكى أتعلم الجزئيات التى تتشكل منها الكليات. فى الطفولة تعلمت الكلام وفى الصبا تعلمت الحروف والقواعد التى تكون الكلام. تعلمت النغم ثم تعلمت الرموز والطرق الذى يكون بها النغم. كنت أرى الأشياء فى الطفولة بعقلى ووجدانى وجسدى ككل متكامل. ثم بات على فى الصبا أن أضع الحدود للفصل بين الجزئيات. فلعقلى ساعة ووجدانى ساعة وجسدى ساعة. والأشياء حولى منفصلة عن بعضها.

وها أنذا أقفز من الصبا فى إتجاه الرشد عبر مرحلة الشباب. وفى القفزة أتحرر فجأة من قيود الحدود. وألمح الحقيقة الكاملة المتكاملة ولو للحظة. وهى لاتحتمل أكثر من لحظة. إن الدنيا أمامى وفى إنتظارى. أراها آيلة إلى وأرانى مسئول عن تنظيمها لحسابى. فهى تحت أمرتكم اليوم. ولكنكم تعدونها لكى نرثها غداً.

وعندئذ أسأل وأتساءل وأبحث. من قال أن ماهو سائد سوف يبقى سائداً وعليه يجب أن يسود ؟ لقد عشت صباى مسود والآن أعد نفسى لأسود. بل وأنت تعد نفسك للتنازل عن السيادة حتى أرثها. ومادمت قد حملتنى مسئولية تنظيم دنياى التى سوف أرثها فى الوقت الذى تعد نفسك

لآخرتك بأن تترك لى دنياك بأفضل مما ورثتها فلابد أن أضع كل شىء موضع التساؤل والشك.

هذا هو عقلى الأول يعود. عقل الطفل الذى يرى الكليات قبل الجزئيات. ولكننى لكى أتربع على عرش الرشد لا بد لى من دفع ضريبة ثانية توازى ضريبة الصبا. لابد أن أحدد الأشياء وأركز لكى أتخصص فى مهنة تؤهلنى لأن أبدأ السلم من آخر خطوة سبقتنى بها. لابد أن أكمل مسيرة لا أبدأ التاريخ من جديد. لابد أن أتعلم مرة أخرى ولكن على مستوى أرقى.

فى الصبا تنازلت عن لذات الطفولة. وهى تداهمنى فى الشباب فى ذات الوقت الذى لا بد أن أتعلم كيف أتنازل عنها وأكبح جماحها حتى أتمكن من التعلم والتخصص والاحتراف وعلى الآن أن أنصر كفة عقلى الثانى.. عقلى الذى يرى الجزئيات قبل الكليات.

ولكن مذاق الحقيقة لا يمكن نسيانه. ومن هنا لن أفقد الرؤية الكلية تماماً. وسوف أبقيها حية بينما أواصل تنمية عقلى الثانى.

الحيرة بين سيطرة عقلين تخف حدتها بأن أعطى لكل عقل حقه. قد يلزم ذلك فصلهما وتحديدهما تارة، أو ترجيح كفة واحد ثم الآخر. حتى أصل إلى التوازن الأمثل. ويصير العقلين عقلا واحدا.

٣٥- التأرجح بين الألم واللذة

يا أبتي، حين يشتد بي الألم تنشد حواسي كلها إلى موقعه وافقد الإحساس بالعالم حولي. يتحول كل شيء إلى ظلام حالك. أصرخ بحثا عن النقيض. الألم مطلق فأبحث عن اللذة المطلقة. الظلام حالك فأبحث عن النور الباهر.

وأخرج من ألمي بأن أتغمس في متعتي ولذتي. ويستمر تشبثي بها ويزداد خوفا من عودة الألم. وكلما زاد تشبثي زاد وعي بالألم الذي أهرب منه. الألم يطاردني كلما هربت منه. واللذة إذا مانجحت في استبقائها تتحول إلى حال ثابت. وماكان صعودا نحو قمة لذة يصير سيرا على هضبة لذة سرعان ماتصبح مللاً. والملل إذا طال يتحول إلى ألم جديد. الألم يطاردني كلما عدوت مبتعداً عنه.

لا مفر من الألم. إذا فليكن بيدي لابيد عمرو. إني أبحث عن الألم ليكسر ملل اللذة المستمرة. أتألم عمدا حتى أنعم باللذة التالية لذهاب الألم. وكلما زادت اللذة كلما زاد الألم الذي احتاجه لابرز اختلاقفها. أتطرف في الألم لأني أتطرف في اللذة. حتى أجد أن قمة اللذة هي قمة الألم. كم من عشيق رحب بالموت طالما كان في فراش اللذة. العاشق يموت حبا في عشيقه.

فلتكن حياتى إذا هى ذلك الإنتقال من اللذة إلى الألم والعكس. الحياة جدل بين نقائض. وطالما هناك حياة هناك جدل وتناقض وصراع. ولكن التناقض بديناميته هو فى جوهره سعى دءوب نحو حل ذاته، فى الصراع تكمن الحاجة إلى حل الصراع. ولكن حل الصراع تماما لهو بمثابة الموت. فالحياة إذا حركة تسعى نحو السكون.

لعلى أستطيع أن أحقق الجماع. فلا أغرق فى الألم حين يداهمنى ولا فى اللذة حين أنغمس فيها. ولكن أتذكر أن لكل موجة نهاية تبدأ بعدها موجة جديدة. ولعلى أستطيع أن أتحكم فى جدة التموج فلا أتطرف فى اللذة ولا أتطرف فى الألم. ونقيض التطرف قد يكون التبلد. ولكن النقيض الأفضل هو الحكمة. أن أحقق الجماع لا فقط بتذويب حدة الإنتقال من حال إلى حال ولكن أيضا فى قدرتى على الجمع المتزامن للنقيضين. أنا أكون متاحا مبتهجا معا وحزينا مرحا معا، وقويا ضعيفا معا مثلما أكون متألما ثم مبتهجا،، وحزينا ثم مرحا وقويا ثم ضعيفا. إنها نقطة بعيدة أسعى نحوها.

٣٦- تزيين الحياة الدنيا وتعميرها

يا أبتى إن نفسى لأمارة بالسوء. أبحث عن طريق اللذة المريح وأسير فيه. إذا جاء موعد القيام استسهلت وفضلت الاستمرار فى النوم. إذا جاء موعد العمل استسهلت وفضلت الراحة. إذا جاء نداء الحرمان استسهلت وفضلت الإشباع. والنفس جوعى شرهة كلما أشبعت طلبت المزيد.

وهنا أسمع همس اللوم من داخلى.. همس النفس اللوامة. أسمع الأمر بالقيام بدل النوم وبالعمل بدل الراحة والحرمان بدل الإشباع. النفس اللوامة تتصارع مع النفس الأمارة بالسوء وأنا فى حيرة بينهما أتألم. فيدفعنى الألم نحو إنهائه بأن أحل الصراع. أستنجد بالنفس المطمئنه استرشد بها بحثا عن موقع الحق. فأستعين بالله من خلالها أن أرجح كفة النفس اللوامة برهة فهى لها على حق، يجب أن تأخذه بعد فقدان.

ولكن الحال لايقف بمجرد ترجيح الكفة. نفسى واحدة خلقها الله هكذا. وجعل فيها الأمر بالسوء والعصيان مثلما جعل اللوم والطاعة. لا أعرف الإطمئنان بعد. وبدونه لن تعرف نفسى طريقها إلى ربها راضية مرضية.

كيف إذا أعطى للأمارة بالسوء حقها ؟ كيف أنام وأصحى وكيف أستمتع وأحرم وكيف أصوم وأفطر وكيف أشتهى الجنس وأزهده ؟ ألم يكن

الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثال الجماع لكل هذه المتناقضات ؟

سوف أرضى بما أمليته على فى هذه المرحلة: أن أعمل. وسوف أدرك أننى بعملى أعد ليوم راحتى. سوف أحرم نفسى من الإنغماس فى اللذة وأعرف ساعتها إن الحرمان ماهو إلا إعداد للذة الكبرى. سوف أؤجل الحصول على ما يبدو لى إنكم معشر الكبار تحصلون عليه. سوف لا أحسدكم على ماتعتنون ثقة منى إنكم دفعتم من قبلى ضريبة العمل والإدخار لهذا اليوم والذى بعده والذى لا بعده يوم. بل إنى أعترف رغم إشتياقى للذة كم تحرمون أنفسكم منها كثيراً. فإذا كنتم تكسبون وتدخرون وتنفقون فإن ذلك ليس كله بدافع الجشع والتكديس والتبذير ولكن لأنكم تعملون لهذه الدنيا ماقد يكون الفائض منه إدخاراً لآخرتكم. وتعملون وأنتم تستعدون للموت فتعملون لتعطوا لنا لا لتدفنوا أموالكم معكم. وتكتفون بجنى الثمار فى هيئة المتع المحدودة والمقننة شرعاً. إن الله لم يأمرنا بالزهد بل أمرنا أن نأكل من طيبات مارزق وأمرنا أن ننكح وننجب. فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا عندكم. ولكنها أيضا نقطة الإنطلاق لنا لنعمر الدنيا بالعمل.